يعقوب الشاروني

أبطال بلدنا

مسرحية من ثلاثة فصول

الفائزة بجائزة الدولة الأولى

للرواية والمسرحية عن معركة المنصورة

الدار المصرية للطباعة والنشر

أبطال بلدنا

مسرحية

تأليف

يعقوب الشاروني

الدار المصرية للطباعة والنشر
٥٩ شارع صفية زغلول الاسكندرية

فازت هذه المسرحية بالجائزة الأولى فى مسابقة كتابة رواية أو مسرحية عن معركة المنصورة عام ١٢٥٠ ، وهى المسابقة التى أقامها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعيــة عام ١٩٦٠ ، وتقدم لهــا نحو مائتين من المسرحيات والقصص .

وقد تفضل السيد الرئيس جمال عبد الناصر بتسليم الجوائز للفائزين ، وذلك فى الاحتفال الشعبى الذى أقيم بالمنصورة يوم ٧ مايو عام ١٩٦٠ فى ذكرى انتصار الشعب العربى على العدوان الصليبى فى القرن الثالث عشر .

وكانت لجنة فحص الإنتاج المقدم للمسابقة مكونة من الأساتذة : الدكتور مهدى علام . خالد محمد خالد . طاهر الطناحى . عبد الحميد جودة السحار . عبد الحميد حسن . عبد الرحمن الشرقاوى . الدكتور عبد القادر القط . محمد خلف الله أحمد . محمد سعيد العريان .

إلى الشعب العربي

هذا العملاق!

الـكلمة التى ألقاها المؤلف أمام السيد رئيس الجمهورية
فى احتفالات المنصورة يوم ٧ مايو عام ١٩٦٠

سيدى الرئيس :

باسمى ، وباسم إخوانى الفائزين ، أشكركم على تـكريمـكم الأدب والأدباء ، بتفضلـكم بتوزيع جوائز المسابقة ، مما أضاف إلى قيمتها معنى ، وإلى قدرها قدرا .

فمنذ قامت الثورة بقيادتـكم ياسيدى الرئيس ، ونهضة الأدب والفن ، تسير جنبا إلى جنب مع نهضة العلم والصناعة ، شأنها فى ذلك شأن كل قيـادة مستنيرة ، تدرك أن التقدم يجب أن يكون شاملا . فالدولة التى تخرج العالم والمخترع ، هى الدولة التى تخرج الأديب والفنان .

ومنذ أنشىء المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، وهو يعمل فى جهد ودأب ، على النهوض بالأدب والفن والعلوم الاجتماعية فى الجمهورية العربية المتحدة ، فيحتفل بذكرى الأدباء والفنانين والمفـكرين العرب ، ويقدر الأحياء منهم بشتى صنوف التقدير ، ويقيم المسابقات تشجيعا لهم ، وكشفا للمواهب التى لا تجد طريقها سهلا معبدا .

ومن بين هذه المسابقات ، تلك المسابقات الأدبية التاريخية ، التى تتناول انتصاراتنا الوطنية : فمن لم يعرف ماضيه ، لن يعرف حاضره

ولا مستقبله . وكانت أولاها تكملة قصة « فى سبيل الحرية » ، التى بدأتها ياسيدى الرئيس كتابة وأكملتها عملا . وتلتها هذه المسابقة ، وهى مسابقة يستوحى فيها الأدباء ذكرى معركة من أخلد المعارك فى تاريخنا العربى ، يوم وقف العرب صفا واحدا — وما أشبه الليلة بالبارحة — فى وجه الحملات الغربية الطامعة تحت ستار دينى زائف ، فحارب أجدادنا ودافعوا وانتصروا هنا فى المنصورة ، حتى تم انسحاب الأعداء مدحورين فى دمياط ، كما حارب أجدادنا ودافعوا وانتصروا بعد ذلك فى عين جالوت ضد المغول ، وفى القاهرة والإسكندرية بل وكل مدن مصر ضد جيش الحملة الفرنسية ، وفى رشيد ضد الإنجليز ، وكما حاربنا ودافعنا وانتصرنا فى بور سعيد بالأمس القريب ، وكما حاربنا وصمدنا وانتصرنا — بقيادتكم ياسيدى الرئيس — فى معركة اليوم .(*)

ويهمنى أن أشيد بذلك الاختيار الموفق كل التوفيق لموضوعات هذه المسابقات، فهى تتناول فترات رائعة من تاريخنا الوطنى ، كان لابد من أن تصبح موضوعات لأعمال أدبية ، حتى تصير جزءاً أساسياً من تراثنا الثقافى والوجدانى .

ولا شك أنه كان لانفعالنا العميق بتلك الفترات من تاريخنا ، أثره

(*) فى صباح نفس اليوم الذى أقيمت فيه الاحتفالات ، جاءت الأنباء بأنه ، نتيجة لصلابة وتكاتف الشعب العربى ، بدأ تفريغ شحنة الباخرة كليوباترة ، التى كانت الصهيونية والاستعمار قد أوعزا بمقاطعة تفريغ شحنتها فى ميناء نيويورك .

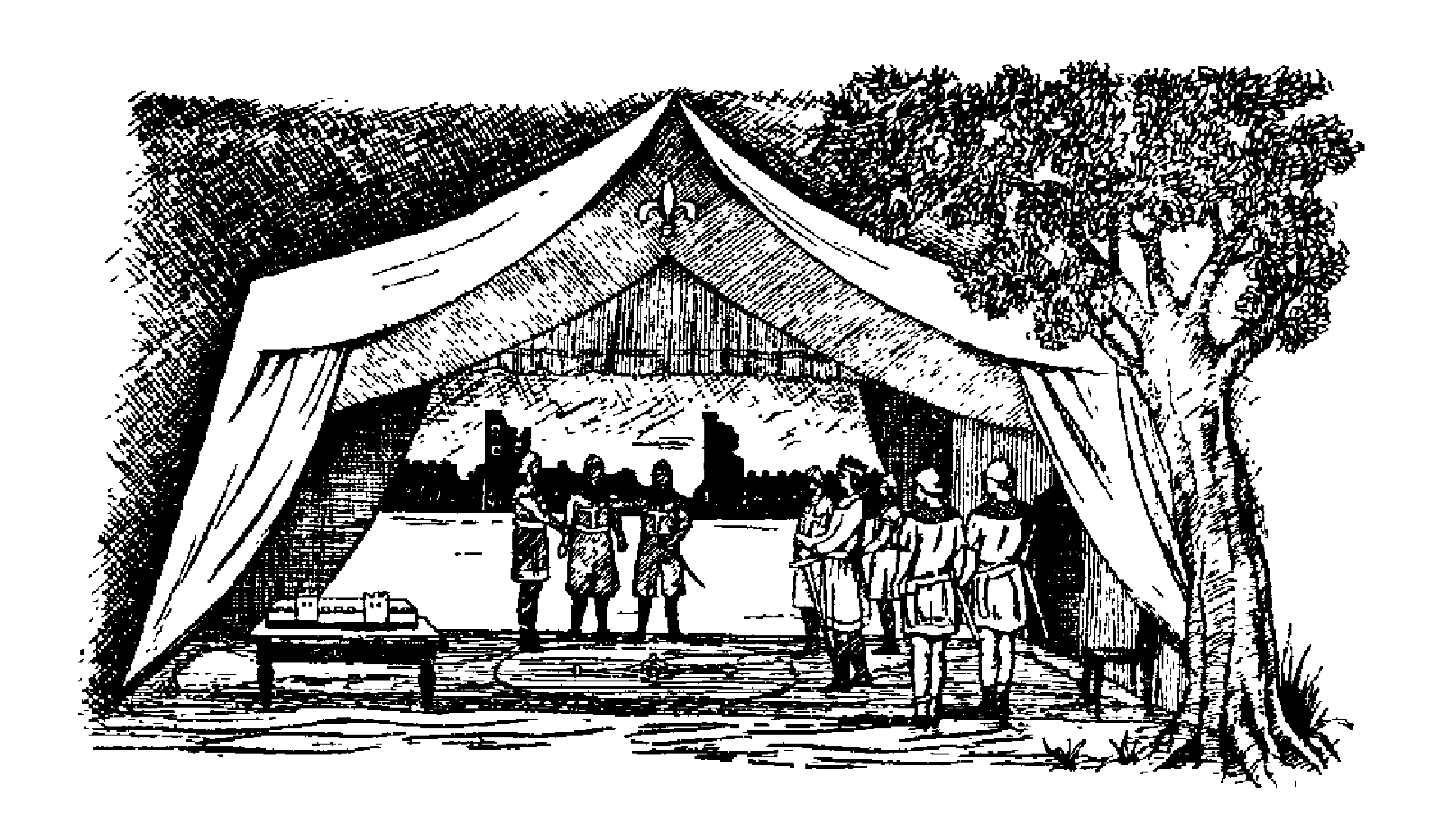
الـكبير فى أننا عشنا أحداثها فى الأعمال الأدبية التى تقدمنا بها ، فقد كان أكثر ما هزنى ، وملأنى حماساً للعمل فى المسرحية التى تقدمت بها ، هو ما كشفته لى دراسة التاريخ ، من دور حاسم رائع ، كان يقوم به شعبنا لمواجهة كل عدوان ، وهو دور لم يتخل عنه الشعب العربى أبداً .

ومن خلال بحثى فى المراجع التاريخية ، اكتملت أمامى صورة واضحة عن المعركة ، وعن دور الشعب فى مقاومة المغتصبين ؛ صورة للشعب العربى كله ، وهو يقاوم هنا ، فى هذه المدينة المنصورة ، فى كل شارع وفى كل زقاق ، يصب الموت على المعتدين من كل سطح ومن كل نافذة ، وقد وقف الشعب مع الجيش ، واتحدت الأمة بكل عناصرها ، فَهُزِمَ المعتدون ، وأُسِرَ كبيرهم ، وهذه دار ابن لقمان . . ما تزال شاهدة على تلك الهزيمة النكراء .

سيدى الرئيس

مرة أخرى ، باسمى و باسم زملائى ، أشكر لسيادتكم هذه الرعاية الكريمة للأدب ؛ كما أعبر عن تقديرى وتقديرهم ، للدور الذى يقوم به المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، فى سبيل إحياء أيامنا الخالدة ، وأمجادنا التاريخية ، عن طريق الأدب والفن .

والله نسأل أن يوفقنا فى كل معركة مقبلة ، كما وفقنا فى كل معركة سابقة .



شخصيات المسرحية

وفق ترتيب ظهورها على المسرح

(وضعنا حرف (ت) أمام أسماء الشخصيات التاريخية)

فاطمة . الأم ـ فى الخمسين من العمر .

بدرية ـ ابنة فاطمة . فى الثانية والثلاثين من العمر .

قطر الندى ـ صديقة بدرية . فى التاسعة عشرة من عمرها .

بدرالدين ـ ابن فاطمة وأخو بدرية . صبّاغ . فى الثالثة والثلاثين .

بطرس الصراف
معين الدين النساج } صديقان لبدر الدين ، فى العقد الرابع من عمرها .

فيليب دى روزاريو ـ قائد فرسان وجنود جمهورية بيزا .

جاستون ـ تابع فيليب . مهرج خفيف الظل .

سارچين ـ السير جوفروا دى سارچين (ت) . فارس فرنسى .

مارسيل (ت) ـ تابع السير دى سارجين .
الملك لويس التاسع (ت) ـ ملك فرنسا الذى قادالحملة الصليبية على مصر عام ١٢٤٩ ، والذى يلقبه التاريخ « بالقديس لويس » .
الملكة . مرجريت دى بروفنس (ت)ـ زوج الملك .
جوانفيل (ت) ـ فارس • فى حوالى الخامسة والأربعين من العمر .
ريشار } تابعا الملك .
جوزيف
آرتوا ـ الكونت روبرت دى آرتوا (ت) . أخو الملك لويس .
ريجنالد ـ قائد فرسان القديس يوحنا .
ثلاثة فرسان صليبيون .
رسول من شيخ الجبل .
الكاردينال روبرت (ت) .
الطواشى صبيح المعظمى (ت) ـ حبشى . رسول توران شاه (ابن السلطان نجم الدين صالح) ومن المقربين إليه .
جمال . الطواشى جمال الدين محسن الصالحى (ت)ـ نائب السلطان نجم الدين صالح .
بيبرس البندقدارى (ت)
شجرة الدر (ت) ـ زوج السلطان نجم الدين صالح .
ستة أعراب .
فارس مصرى .
سيمون (ت) ـ غانية فرنسية .

الفارس جون ـ عهد إليه الملك برعاية الملكة فى دمياط . فى الخامسة والخمسين من العمر .

رسول مصرى

بواتييه ـ أخو الملك لويس .

ـ مجموعات من الجنود والنبلاء الصليبيين ـ

ـ جماعات من شعب المنصورة ـ

المناظر

الفصل الأول : (الأحد ٦ من يونيو عام ١٢٤٩ م) .

المنظر الأول منزل بدر الدين فى دمياط

المنظر الثانى نفس المكان السابق

الفصل الثانى : (الثلاثاء ٨ من فبراير عام ١٢٥٠ م) .

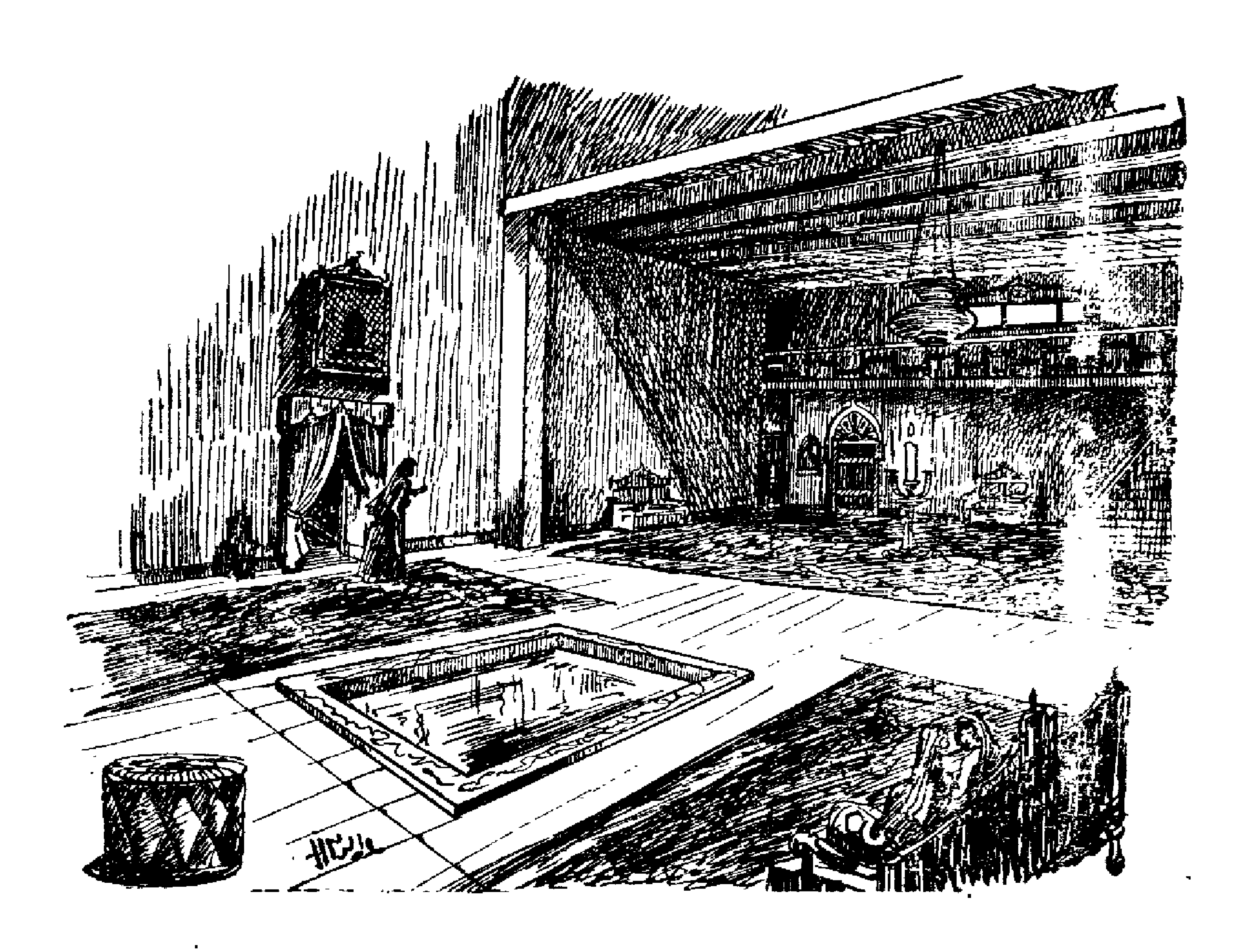
المنظر الأول المعسكر الصليبي على شاطىء « بحر أشموم » أمام المنصورة

المنظر الثانى منزل بدر الدين فى المنصورة

الفصل الثالث : (الأربعاء ٦ من أبريل عام ١٢٥٠ م) .

المنظر الأول قرية منية عبد الله

المنظر الثانى دار ابن لقمان فى المنصورة



الفصل الأول

المنظر الأول

(دمياط في يوم الأحد السادس
من يونيو عام ١٩٤٩ قبل الغروب .
منزل بدر الدين الصباغ – بيت
أسرة ميسَّرة الحال من الطبقة
الوسطى) .

(قبل ارتفاع الستار ، نسمع موسيقى تعبر عن القلق والترقب والحذر .

المسرح يشمل البهو المسقوف فيما يلى الباب المفضى إلى الطريق ، ويليه – في مقدمة المسرح – جزء من البهو غير المسقوف ، الذى تطل عليه حجرات البيت الداخلية .
ترتكز حافة سقف البهو المسقوف من ناحية البهو غير المسقوف ، على عمودين ينتصبان بجوار حائطى اليمين واليسار .
تتوسط البهو المسقوف قاعدة شمعدان بها شمعة ضخمة قصيرة ، وفوقها تتدلى مشكاة ، كما تتوسط البهو غير المسقوف ، فسقية صغيرة .

في الصدر ، نرى الباب المفضى إلى الطريق على اليسار ، وبجواره نافذة صغيرة مغلقة عليها ستارة جميلة .
إلى اليمين سلم خشبي مثبت إلى الحائط الأيمن ، ينتهى إلى ممر يجتاز الحائط المواجه فوق باب الطريق والنافذة ،

ويؤدى إلى غرفة علوية يستخدمها بدر الدين معملا لتجاربه الكيميائية ، ويقع بابها فى نهاية الممر بالجانب الأيسر أعلى المسرح . تعلو الممر نافذة واسعة من الزجاج الأبيض .

أسفل باب غرفة بدر الدين ، يقع الباب المفضى إلى غرفة الضيوف . وفى نفس الجانب الأيسر ، فيما يلى العمود ، وبالقرب من مقدمة المسرح ، يقع باب غرفة الحريم ، وفوقه مشربية صغيرة .

الأبسطة والحشايا والمقاعد الخشبية المنقوشة والأقمشة ذات الرسوم المطرزة ، منتشرة فى ذوق سليم على الأرض والجدران . يُلاحظ اهتمام أهل الدار بوضع ستائر انتقوها جيدا ، لونا وقماشا ، وكذلك أغطية الحشايا ، فهم تجار أقمشة ، ويملكون مصبغة .

فى الركن الذى يكوّنه الحائط الأيمن مع قاعدة العمود الأيمن ، فى البهو غير المسقوف ، توجد منضدة عليها أوان زجاجية وأنابيق وكؤوس وهاون خزفى ؛ أوعية مما يستعملها الكيميائى عادة .

فى الناحية اليمنى بجوار الفسقية ، دكة عليها حشايا ؛ عندما يرتفع الستار ، نرى بدرية أخت بدر الدين جالسة على تلك الدكة ، تتحدث همساً مع صديقتها قطر الندى .

يُفتح باب غرفة الحريم ، وتطل منه فاطمة — والدة بدرية وبدر الدين — وترسل بصرها إلى السلم ، ثم تخرج وقد استندت إلى عكاز تحت إبطها ، ولا نلبث أن نتبين أن ساقها اليمنى مهيضة ، وأنها لا تستطيع السير إلا متكئة على العكاز .

تخطو فاطمة بضع خطوات حتى يصبح فى إمكانها أن ترى
باب حجرة بدر الدين أعلى الممر العلوى . تخفت الموسيق
ثم تتوقف)

الأم : (لبدرية فى قلق ، ونظرها لا يزال مستقرا على حجرة بدر الدين)
لا يزال باب حجرة أخيك مغلقا عليه حتى الآن ..! تناول
لقمة صغيرة فى الإفطار .. ثم اختفى فيها .. كأنما لا ينوى
مغادرتها اليوم ... لولا عكازى .. لصعدت أرى ما يستغرقه
بعيداعنا !.. إنه لم يعد ينام إلا لماما ..!

بدرية : ألن توفرى على نفسك هذا القلق يا أمى ؟! . . أماتكفيك
ثلاثون عاما .. من الاهتمام بنومنا وصحونا ؟!..

الأم : إن بدر الدين يريبنى بما يفعل فى حجرة الكيمياء فوق :
كتب قديمةوعمل دائب ... كثيرا ما رأيتكما تتساران .. ثم
تسكتان حالما ترياني . . أنتما تخفيان عنى شيئا ..!

بدرية : (تريد أن تحسم الحديث) يريد بدر الدين ، أن يفرغ من ابتكار
لون جديد، يفاجىء به نساج أقمشة القباطى والدمياطى ...

الأم : بدر الدين ليس بالرجل الذى يستغرقه اختراع الأصباغ ، وقد
نزل الفرنسيس بجيزة دمياط منذ يومين ... أهل دمياط تركوا
أعمالهم .. وقد توترت نفوسهم .. ثم ينسى ابنى هذا البلاء
الوافد ؟ ! ... لا ... هناك شىء . . !

قطر الندى : لماذا تتركين والدتك للقلق يا بدرية ؟!.. هناك أمور غامضة
تشغل أخاك !.. لقد رآه أبى يتعاون مع بطرس الصراف،
ومعين الدين النساج ، فى نقل كتل غريبة الشكل من الخشب
إلى شاطىء النيل . .

الأم : (لقطر الندى) الناس كلهم يعرفون ما يشغل ابنى ، وابنتى
تخفى عنى كل شىء !.. منذ أخذ الوباء منها ابنها وزوجها ،
وهى لا تكترث بأن يأكلنى قلق أو هَمٌّ ! ..

بدرية : (لوالدتها ،وقد استاءت من تعريضها بها) بل أنت التى لا تستقرين
على حال ، منذ ترامت إلينا أخبار خروج حملة الفرنج من
أوربا ! .. إنك تحطمين نفوسنا بهذا الجزع المُمِض !..

الأم : (فى ألم ، وقد آلمها تأنيب ابنتها) لو عِشْتِ العمر الذى عِشْتُه ،
وعانيتِ بعضَ ماقاسَيتُ .. لوَفَّرْتِ على نفسك هذا الحديث
المتسرع ! . . كم جنت علينا سكنانا هذا البلد عند مدخل
النيل ! . . سيظل كل عدو يعتبر دمياط مفتاح مصر ،
فنأخذ نحن دائمـــا . . أولى الضربات وأقساها . . .
(تسكت بدرية إحساسا بمقدار الجرح الذى أصابت به نفس أمها)

قطر الندى : (لفاطمة ،فى انبساط تحاول به تخفيف التوتر) معظم أهل البلد ،
لا يشاركونك هذا الجزع يا عمتى . . . الأمير فخر الدين
ابن شيخ الشيوخ ، يعسكر بجيوش المماليك القوية فى البر

... الغربي ، حيث نزل الفرنج قبالته . . . وفرسان بني كنانة الأشداء ، يحرسون أسوار البلد هنـا . . ولا يغفلون عن أبراج البر الشرقي خارجها . . . إن هي إلا معركة واحدة ، تقذف جيوشنا بعدها بالكفار إلى البحر من حيث جاءوا...

الأم : تتحدثين يا صغيرتي . . كأنما لا ينقصك إلا رمح حصان !.. (متنهدة) لقد حاصرنا هؤلاء الفرنج . . منذ ثلاثين سنة .. أحد عشر شهرا ، لا يردهم عنا كل ما بذلته الجيوش . . . وكانوا ينوون مواصلة الحصار ، لولا ثقتنا بكلمة شرف منهم ، ففتحنا لهم الأبواب ... (في أسى مرير) وبعد فوات الأوان ، حفروا في قلوبنا أبشع المآسي . . تنطق بانعدام كل شرف لديهم ! . . . هل هناك من يأمن اليوم على نفسه ، وليس بيننا وبين هؤلاء المتدينين ذوي الصلبان ، سوى بحر النيل ؟!..

قطر الندى : لن يفلحوا أبداً هذه المرة في اقتحام دمياط ، كما يؤكد أبي . . . سلطاننا « الصالح نجم الدين أيوب » قد حصنها بأضعاف ما كانت عليه منذ ثلاثين عاما ، رغم مرضه الشديد ... لقد ملأها ذخائر وأقوات . . تكفيها لأكثر من سنتين . . .

الأم : (في مرارة) لكنهم دخلوها في المرة السابقة رغم كل شيء.. وجللوا حياتي بالسواد ... يتموا بدرية وبدر الدين..

صغيرى اللذين لم يعودا يُشركانى فى أسرار حياتهما . . كأنما أنا غريبة عنهما . .

بدرية : هذه المرة لم نفاجأ . . فأعددنا لكل شىء عدته !

الأم : ترددين عبارات أخيك بدرالدين ! .. ما كان أحرانا أن نترك دمياط إلى المنصورة . . منذ علمنا أن الفرنج وصلوا قبرص ، وأنهم فى طريقهم إلينا . . . كانت أمامنا ثمانية أشهر ، لولا أخوك ..!

بدرية : (تغمز بعينها لقطر الندى ، محاولة تخفيف جو الحديث) يترك أخى دمياط . . وفيها قطر الندى ؟ ! (تضحك)

قطر الندى : (فى حياء ورنة غضب) بل وفيها مصبغته وتجارته ! ! (تسمع صوت باب الحجرة العليا يفتح ـ يلوح بدر الدين وهو يغلقها خلفه . تسرع قطر الندى إلى بدرية تجذبها ناحية غرفة الحريم) تعالى إلى حجرتك . . أسرعى . . .

بدرية : (وهى تسير معها متباطئة) ومالك تفرين هكذا ؟ ! . . (مستنكرة فى مرح) .. نزول بدر الدين، يقلب كيانك هكذا ؟!

قطر الندى : (وهما تدخلان) اسكتى ياشقية . . . لسانك أطول منك . .

(ينزل بدر الدين ساهما من السلم دون أن يلحظ اختفاء بدرية وقطر الندى . تقابله امه عند قاعدة السلم)

الأم : ماذا حلّ بك يابدر؟! ..مااستغراقك فى الفكر ، حتى لا تحس

بنا حولك ؟! .. ألن تبسط جبهتك هذه ؟!

بدر : (مكملا أفكاره الخاصة) .. تلك الشوانى اللعينة !

الأم : (مدهوشة، وهى تحملق فى بدر) شوانى ؟! هل قلت شوانى ؟!!

بدر : لقد جاء هؤلاء الفرنج فى شوانٍ ، وحمّلوا زادهم وخيلهم فى حمّالات ؛ ووضعوا آلات الحرب فى حراقات ... وكل هذا من خشب ! .. ألفا سفينه كلها من خشب ! ! والنار ، يا أمى العزيزة ، تأكل الخشب !..

الأم : (وقد ارتجف صوتها) هل أنت على ما يرام يابدر الدين ؟! . . ماعلاقة كل ذلك ، بتلك الصبغة التى تقضى كل هذا الوقت فى اكتشافها ؟!

بدر : صبغة تسبغ على السماء لونا قرمزيا وهاجا.. وتترك الأخشاب سوداء فاحمة .. !

الأم : (مسايرة ابنها ، مشفقة مما عساه يكون قد حل به) السماء والأخشاب؟!.. أنت فى حاجة إلى راحة ياابنى !..ألم تكن السلامة فى مغادرتنا دمياط ، قبل أن يأتى هؤلاء الفرنج ؟!..

بدر : (فى استنكار) نغادر بلدنا ؟ ! نترك مصنع الصباغة الذى قضينا العمر نُنَمّيه ، ليدافع عنه المماليك والأعراب ؟!..

الأم : وماذا علمك أنت من أمور الدفاع ؟ ! . . كانت المدينة مملوءة بأمثالك من الشباب المتحمس ، عندما دخل الفرنج فى المرة السابقه..(بأسى قاتل) ومع ذلك .. طارت رقاب الرجال

أمام ذويهم.. وسيقت النساء والفتيات كالسوائم إلى المسجد...
هناك مزقوا ما عليهن من ثياب ... و ... وانقضّوا عليهن
كالوحوش .. لا يخجل أحدهم من الآخر ... انظر إلى ساقي!
هذا هو الثمن الذى نجوت أنا به! ..

بدر : .. كان التسليم إذ ذاك، خطأ لا يغتفر!..

الأم : يقولون إنهم قدموا هذه المرة فى جيوش جرارة كالنمل . . .
أليست الغنيمة أن ننجو بجلدنا، من مذبحة توشك ان
تقع؟!..

بدر : لو كان هذا التشكّك عالك قلوب فلاحينا العامرة بالإيمان، لما
ضحّوا إذ ذاك بثمرة كدهم وعرقهم، فأطلقوا المياه فى الحقول..
وقطعوا طريق الفرنج، فحصروهم، حتى أفناهم آباؤنا ..

الأم : أخشى الحصار يا بدر الدين .. لقد أكلنا الجيف ... كان لدينا
كلب عجوز، لا أنسى يوم سلخه أبوك!.. ظلّت لياتين أتقيأ،
وفى اليوم الثالث . . . .

بدر : (مقاطعاً عودة أمه إلى ذلك الماضى الذى يملك عليها حياتها) لا . .
لن أترك دمياط ... بل . . (يتوقف مفكرا. ينظر الى والدته
ليرى أثر كلماته القادمة عليها. تنظر إليه وقد نسيت ذكرياتها، مترقبة
كلمته) أماه .. سأعبر النيل! ..

الأم : (فى جزع، وقد فاجأها قرار ابنها) طريق المنصورة لا يحتاج إلى
عبور النيل!.. إلى أين تذهب؟!

بدر : إلى معسكر جيش الأمير ابن شيخ الشيوخ ، على الضفة الأخرى !.. يجب أن أبذل جهدا ، حتى لا يُضرَب الحصار حولنا ..!

الأم : (فى جزع شديد) تلقى بنفسك إلى الموت ؟!!

بدر : حتى لا يدهمنا الموت هنا ! (فى لهجة أخف وقعا) يجب أن أكون قريباً من شوانى الفرنجة الراسية هناك . .

الأم : (يائسة) عدنا ثانية إلى الشوانى ؟ !

بدر : إن سفنهم إذا احترقت ، امتنعت عنهم الإمدادات ... واضطروا إلى الرحيل . .

الأم : وهل تظن أن أولئك المماليك المغرورين ، سيقبلونك بين صفوفهم على الضفة الأخرى ؟ ! . . إن قائدهم ابن شيخ الشيوخ . . ليس فى حاجة إلى جاهل مثلك بفنون الحرب ، ليكون عبئا عليه •••

بدر : بل هو الذى أصبح عبئا على الجيش ، منذ لعبت به الأطماع .. ووجد نفسه أقوى رجل فى مصر بعد مرض السلطان ... إن الأتابك ابن شيخ الشيوخ .. يقف أمام دمياط ... بجسمه ودرعه وسلاحه ، لكنه فى قصر حفيد صلاح الدين المريض .. بروحه وقلبه وأحلامه ••• هل نترك الأمر جميعه بين يدى أمير .. لا تشغله إلا الرغبة فى الانقضاض على العرش . . ولو ضحى بدمياط وأهل دمياط ؟!.. (يخفف من حماسته . يقول

فى حزم) ... أمى ... أعدى لى طعاما يكفى يوما وليلة . . .

الأم : (باكية ، فى محاولة أخيرة قوية للتأثير عليه) بينما أمنى نفسى أن أفرح بزفافك إلى فتاة كقطر الندى . . تندفع هكذا بغير تبصر إلى مصير مجهول ! . .

بدر : (صارخاً فى انفعال، وقد ضايقه عناد أمه) . . . إذا لم يرحل هؤلاء الفرنج . . إذا لم يعودوا دون أن يدخلوا دمياط . . فما جدوى الأمل فى أفراحنا الصغيرة ؟ ! . . سنفقد كل شىء . . المصنع . . والتجارة . . . والحب أيضا ! . .

بدرية : (تخرج من حجرة الحريم مستطلعة) بدر الدين •• لا تصرخ هكذا فى وجه أمنا ! . .

بدر : (لبدرية ، محتجا) تحاول أن تُقعِدَنى عن المشاركة فى الدفاع عن بلدنا ! . .

الأم : (لبدرية ، صارخة) يريد أن يعبر إلى الضفة الأخرى ... سنفقده كما فقدنا أباه ! . .

بدر : بل أريد ألا نفقد دمياط ، كما سبق ان فقدناها ! . .

الأم : وماذا نستطيع وحدك أن تفعل ؟ !

بدر : أنا لست وحدى •• إن شباب البلد جميعا ، يتحفزون معى للانتقام لما حل بك •• بأبى . . بأهل دمياط جميعا ! . .

الأم : (باكية) أنت يامن كنت أرحم الناس بى ؟ !

بدر : هذه فرصتنا للثأر ، من هؤلاء الذين عادوا تحت إمرة ملك

مغرور .. جعلوا منه قديسا ، وزعموا أن الله أمره فى حلم .. بالاعتداء على الآمنين ! . .

بدرية : (فى هدوء لا يتناسب مع ثورة أمها) لم تخبرنى أبداً أنك ستذهب إلى الضفة الأخرى ! ..

بدر : يجب أن أجرب هناك نتيجة تجاربى .. !

الأم : (فى غيظ من عناد ابنها) هل ستصبغ بيارق جيشنا بصبغتك الجديدة ؟! . . (لبدرية ، فى سخرية وضيق) أو لعله سيصبغ الشوانى . . هـذه التى لا يفتأ يتحدث عنها كالمجنون ! (يسكتان . . .) أم . . . (فجأة لبدر) أم كنتما تخدعانى أنت وأختك ؟! . . (تردد نظرها بينه وبين أخته) أيتعلق الأمر بالصباغة حقا ؟ ! . .

بدر : . . . بل بالنار ! . .

الأم : (صارخة) أنت تجرى تجارب على النار .. ؟ ! هنا .. . ؟! فى البيت ؟ ! (لبدرية) أتسمعين يا بدرية ؟ ! . .

بدرية : (متهيبة) إن بدر الدين ، خير من يقدر مسئولية ماهو مقدم عليه . . . (تحس بخيبة أمل أمها ، لأنها ــ أى بدرية ــ لم تنضم إلى صفها ، فتقول مجاملة) . . إنه لن يتركنا ، ونحن فى حاجة إلى حمايته . .!

(تقف الأم صامتة ، وقد أعجزها أن تفهم ما يقصده ابناها ، بل أخذت تشك فى جدية مؤازرة بدرية لها ــ تبزغ فى ذهنها فكرة

مفاجأة ، فتندفع إلى باب حجرة الحريم حيث توجد قطر الندى)

الأم : (لقطر الندى ،دون أن تدخل) تعالى يا قطر الندى . . تعـالى انظرى . . قد تنجحين أنت حيث فشلنا نحن . .

بدر : (لقطر الندى ،وقد أقبلت على استحياء ، وهو يجاهد حتى يكون رقيقاً) أرجو ألا تنضمى إليهما ... قد أتغلب على اثنين .. ولا أقدر على ثلاثة ...

بدرية : (فى روح فـكهة) بل قل : قد أتغلب على أمى وأختى ، ولا أتغلب على قطر الندى !

الأم : (باكية) أطلبى منه يا قطر الندى أن يبقى معنا . . . لأجلك أنت إن لم يكن لأجلنا نحن ...

بدر : لماذا هذا الحرج يا أمى ؟ ! . . لن تتردد جارتنا العزيزة . . فى الموافقة على أن تتيح لى فرصة . . أنال فيها بطولة !. . (فى لهجة ذات معنى . .) لعل والدها يرى بعدئذ . . أن يضع حداً لتردده ، ويجدنى أهلاً لها !..

الأم : سأقوم الآن أطلبها لك ثانية من أمها . . والدها لم يصرح بالرفض أبداً ...

قطر الندى : رجال دمياط لا يشغلهم الآن ياعمتى ، إلا أن يصبحوا أبطالا . . !

(تزداد حيرة الأم أمام إجابة قطر الندى ، فتسرع بدرية إلى حسم الأمر)

بدرية : (لأمها ، فى رقة حاسمة) أعتقد يا أمى .. أن عبور بدر الدين إلى

الضفة الأخرى ، ضرورة عاجلة . . !

الأم : (مصدومة) تتخلين عنى أنت أيضاً يا بدرية ؟ ! •• ياجحود الأبناء ! • • (ترتمى باكية على وسادة) لم يبق لى أحد فى الدنيا •••

بدرية : (فى محاولة صابرة للتخفيف عن أمها) يجب أن يذهب ليجرب هناك قذائف نار ، وجد تركيب بعض عناصرها فى كتاب قديم •• واهتدى فى شهور اعتكافه الطويلة ، إلى بقية العناصر •• (تواصل الأم نشيجها) •

بدر : أمى •• (يجلس بجوار والدته ليطيب خاطرها ، بعد أن شاهد انهيارها أمام تصميمه) هل ترضين أن نترك بقعة من أرض بلدنا الغالية، تطؤها أقدام غزاة معتدين، وفى يدنا سلاح رهيب•• تعبت طويلا حتى اهتديت إلى سره ؟! ••• لقد صنعت النار الإغريقية ، التى تحرص بيزنطة على سرها منذ أربعة قرون !

قطر الندى : (فى حماس) هـذا نبأ عظيم ، لا بد أن أحمله طائرة إلى والدى ! . . .

بدرية : (ضاحكة) وغـدا تقولين : أنا زوجة المـكتشف العظيم ، بدر الدين ! . .

بدر : (لبدرية مبتسما) يكفى أن أسمع تعليقاتك الضاحكة يابدرية ، فأثق أن أمورى تسير على ما يرام مع جارتنا ! . .

الأم : وكيف اطمئن أنا ، أن أمورك ستسير على ما نروم جميعاً يا ابني ؟!

بدر : لن أعبر النيل قبل منتصف الليل ، وسأكون بعيداً عن كل مصادر الخطر .. (يلتفت إلى بدرية) اذهبي يابدرية مع جارتنا .. فما أحب أن يقلق عليها أهلها ...

قطر الندى : (للأم ، وهي تتأهب للخروج) ودعي القلق ياعمة .. وليحفظ الله السيد بدر الدين .. لك ولبدرية ...

بدرية : (مبتسمة لقطر الندى ، وهي تأخذ سراجا ، وتتجه معها إلى باب الطريق) ولك أنت قبلنا ياست قطر الندى (تخرجان) .

(تسمع في الطريق أصوات أقدام تجرى) .

بدر : (لوالدته) لماذا تستغرقك الهموم هكذا يا أمي .. تذكّري أنه ليست لنا إلا حياة كريمة .. أو ميتة كريمة .. ولا وسط بينهما ! ..

(تتكاثر أصوات الأقدام الجارية في الخارج . تختلط بصوت عربات تمرق مبتعده . ثم تترامى صيحات بعيدة متفرقة)

الأم : هل يمكن أن تنتزع من قلب الأم خوفها على ولدها ؟ ... أنا لم أفرح كثيرا في حياتي يا بدر الدين ...

بدر : امسحي دموعك .. ولتملأ الشجاعة قلبك ... فكل عربي سيفخر بما اكتشفت ! .. (يقوم ويدخل الحجرات الداخلية) .

(تتكاثر أصوات الأقدام المهرولة في الطريق ، وتصبح الصيحات

المتفرقة ضجيجا فزعا متصلا ، تتخلله أصوات عربات تقترب ثم تبتعد فى سرعة . تنسى الأم دموعها ، وتقف وقد ركزت كل حواسهافى أذنيها . يعود بدر الدين بشمعة مضاءة ، فيشعل الشمعة الضخمة المستقرة فى الشمعدان ، وسمعه وبصره موجهان ناحية الطريق)

الأم : (فى قلق عنيف) ما هذا ؟!

بدر : (مندفعا نحو النافذة المجاورة لباب الطريق . يزيح الستارة ، ويتطلع إلى الطريق) يالله ... الطرقات ملآى بأهل المدينة ! .. إنهم يهرولون فزعين ... إلى أين يتجهون ؟ (يترك النافذة ويفتح باب الطريق) أغلقي الباب خلفي .. سأذهب لمرافقة أختي وقطر الندى وسط هذا الزحام ...

(قبل أن يخطو إلى الطريق ، يندفع من الباب بطرس الصراف ، وقد ظهر فوق عينه اليسرى أثر جرح كبير غائر ملتئم . يعترض طريق بدر الدين) .

بطرس : (فى عصبية) أنتم لا تزالون هنا ؟ .. الفرار الفرار ...

بدر : لماذا تبدو على هذا الحال يابطرس؟! ... ماذا حل بالمدينة ؟ !

بطرس : الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ ...

بدر : (مقاطعا فى لهفة) ماله ؟ !

بطرس : انسحب !..

بدر : (مردّدا فى غيرتصديق) انسحب الأمير ابن الشيخ ...؟!

بطرس : (فى سرعة واضطراب) أعدّ جسر سفن من الشاطىء الغربى إلى هذا الشاطىء ، وأتم الانسحاب بمماليكه كلهم ..

بدر : (فى إحساس عميق بعظم الكارثة) وتركوا دمياط مكشوفة لجحافل الفرنج !؟

بطرس : فوجئنا بمن يخبرنا أن ابن الشيخ عبر بفرسانه ، على مسيرة ساعتين من هنا ... وقيل إنه فى طريقه إلى أشموم طناح ، حيث يرقد السلطان مريضاً ... !

بدر : (فجأة) هل مات السلطان ؟ ... إن انسحابا كهذا ، لا يكون إلا سعيا وراء العرش .. !

بطرس : (فى نفس العصبية) لا ندرى ... بادروا بالفرار ... فرسان بنى كنانة وجدوا أنفسهم وحدهم فى المعركة ، فأخذوا ينسحبون هم أيضا ... خلال دقائق ستخلو المدينة منهم .. بل ستخلو من أهلها جميعاً .. !

الأم (وقد أدركت الموقف) ابنتى بدرية ... ابنتى .. (فجأة) أنظرا ...

(تشير إلى النافذة العليا ، وقد انعكس عليها لون النار الأحمر . تتراءى من الباب ومن البهو غير المسقوف أضواء يعكسها حريق هائل . تتزايد الأضواء تدريجيا)

بطرس : أشعلوا النار فى مخازن الذخيرة والزاد ...

(صوت عربة تقترب ، لكنها لا تمضى كغيرها ، بل تقف بالباب . يندفع معين الدين النسّاج إلى الداخل)

معين : لماذا تقفون هكذا ؟ أين مركبتكم يابدر ؟

بدر : لم يتم إصلاحها بعد ..

معين : أسرع إذن بوالدتك .. لها مكان فى مركبتنا .. أسرع بها ..

بدر : (لوالدته فاطمة) هيا يا أمى ... أسرعى ..

فاطمة : (وهى تتنفس بالبكاء عن خوفها وقلقها) سأبقى حتى تجىء بدرية... أحضر بدرية ...

بدر : نستطيع الهروب عدواً ، أما أنت .. فلابد من عربة تحملك... اذهبى مع معين الدين . . .

فاطمة : (وقد اجتاحها القلق) وبدرية ؟!. . .

بدر : قلت اذهبى . . (لبطرس ومعين وهو يدفع أمه برفق ناحية الباب) خذاها معكما .. سأجد أختى والحق بكم..(يخرج عدوا ويترك أمه متشبثة فى مكانها على عكازها) .

بطرس : (وهو يجذب الأم برفق، فتسير معه مترددة وهى تستند على عكازها) هيا يا خالة . . لا وقت للعويل . . .

معين : (لبطرس وهما خارجان) المدينة أصبحت مفتوحة للأعداء . . . عـبَر الأمير النهر مع مقدمة الجيش . . ولم يكن فى المؤخرة إلا صغار الجند ... فلم يفكر أحدهم فى إغراق الجسر الذى عبروا عليه . .

بطرس : سنطمئن على أهلنا . . ثم نعود لمقاومة الفرنج (للأم) أسرعى...

فاطمة : (باكية) دمياط ... دمياط تضيع ثانية ... كل شىء يضيع ثانية .. (تخرج ونحيبها يتعالى . يخفت صوتها شيئا فشيئا مع صوت عربة تبتعد مسرعة ..)

(ترتفع موسيقى تعبر عن الصخب والقلق . تتعالى السنة اللهب الظاهرة من النافذة . تخفت الوسيقى ثم تنقطع عند ما يُفتح الباب فى عنف ، ويدخل بدر الدين جريا وخافه بدرية . يقفز بدر الدين السلم عدوا)

بدر : النار ... كدت أنسى كرات النار ..

(تقف بدرية أسفل السلم ممسكة بحاجزه تهزه ، وهى تصيح فى عصبية بالغة)

بدرية : أيها المتهوّر . . . إلى أين ؟ !

بدر : قلت لك النار . . (يختفى فى الحجرة أعلى السلم)

بدرية : لم يبق فى دمياط أحد سوانا . . .

(يظهر بدر خارجا من حجرته ، وهو يحمل ربطتين ، ظاهر بكل منهما عدة كرات من النحاس)

بدرية : لن ندرك أمى أبدا . . . انزل . . . أسرع . . .

بدر : (وهو ينزل فى بطء لثقل حمله) سيرعاها معين الدين النساج وبطرس الصراف . . . (فجأة ، وقد تذكر أمرا أقلقه) هل أنت واثقة أن أهل قطر الندى ، لم يكونوا قد تركوا دارهم ؟!

بدرية : قلت لك تركتها على درجات بابهم ، واندفعت عائدة وسط الزحام . . حتى وجدتنى . . .

بدر : . . . وإذا كانت لم تجدهم . . ؟ !

بدرية : لا تخفى . . لا شك أنها هربت الآن مع الهاربين . . (وهى تتأمل الحمل الذى يحمله أخوها) . . لكنك لن تستطيع إدراكها ، وأنت مثقل بكل هذا . . .

بدر : احملى معى بعضها اذن .. (قلقا) ما كان يجب أن تترك قطر الندى إلا بين يدى أمها ...

بدرية : (وهى تتناول أصغر الربطتين) ... يالهواجس قلبك المريض بقطر الندى ! (تنظر إلى الربطة التى تحملها) ما أثقلها ...

بدر : وما أثقل الموت الذى تحمله !

(يرتفع صوت شخص يجرى فى الخارج)

الصوت : الأعداء عبروا بحر النيل .. الفرنج دخلوا دمياط .. الفرار ...

بدرية : (تقف بعد خطوات قليلة ، وقد أحست بالثقل الفادح لما تحمل) لا أمل فى الفرار ونحن نحمل كل هذا !

بدر : منذ علمنا بأمر هذه الحملة ... قبل عام ونصف عام ، وأنا أجرى تجاربى لصنع هذه الكرات .. لن أتركها أبداً ..

بدرية : الدقائق ثمينة ... الفرنج يحتلون البلد ..(تتوقف) لا أستطيع مواصلة السير .. وكل هذا يثقلنى ...

بدر : (فجأة) اسمعى يابدرية ...

بدرية : ماذا أيضا ؟!.. أنا أعرف لهجتك هذه !.. دائما تخفى وراءها اقتراحا جنونيا ...

بدر : لن نهرب مع الهاربين !

بدرية : (فى سخرية ويأس) ونقدم أنفسنا هدية للقادمين ؟ !

بدر : سنختفى فى المستنقعات المحيطة بالبلد ! ..

بدرية : ... لكى نموت غرقا فى طينها ؟!.

بدر : هذه فرصتنا يابدرية !.. سنجرب سلاحنا من هناك ... لقد نصبت آلة قذف هذه الكرات على الشاطىء بمعاونة أصدقائى، وأخفيتها بنبات الحلفاء. وها هى سفن الأعداء ستُقبِل، فتصبح فى مرمى نارنا ... سنبدأ المعركة من المستنقعات !..

بدريه : ونبقى هناك وحدنا ؟ !

بدر : سنجد معنا كثيراً من شباب دمياط ورجالها ... سننظم هناك صفوفنا لاستعادة دمياط، واقتلاع المحتلين ... لن ندعهم يستريحون ... لقد دخلوا دمياط فى غفلة من الزمن ومنا ... سننتزع منهم هذا النصر الذى أخذوه سهلا ... ونقلب ماظنوه نصراً لهم، هزيمة نكراء. اتبعينى ! ...

(يخرجان من باب الطريق)

ينزل الستار

المنظر الثانى

(نفس المنظر السابق ــ بعد نصف ساعة)

(يُسمع صوت ضعيف ينادى من الطريق فى ألم)

الصوت : (مناديا ...) بدرية ... بدر الدين ..

(لحظة صمت . يتضح الصوت أكثر)

بدر الدين ... بدرية ... بدرية ...

(يُدفع باب الطريق من أسفله فى بطء شديد ، كأن شخصا على أرض الطريق يحاول فتحه . عندما يُفتح ، نرى قطر الندى تحاول جاهدة أن تقف ، والدم يسيل من فمها ... مرهقة محطمة ، مذعورة منهارة . تتلفت حولها وهى تترنح ، فتستند إلى الأثاث والجدران . تنادى وقد هزتها صدمة عصبية عنيفة ، فكأنما تهذى ...)

قطر الندى : ... عمتى ... بدرية . . . لقد رأيت بدر الدين وبدرية . . . هل كانا يدخـــــلان أم يخرجان ؟! ... كيف هربتُ من الوحوش ؟... (تنادى فى ضعف) .. بدرية .. (لا تسمع جوابا ...) لا أحد . . رأيتهما ولم يريانى . . . أخفانى عنهما ظلام الطريق . . . (تتذكر) . . آه . . لقد كانا يجريان . . . يبتعدان ... تشاجر الوحوش فزحفت مبتعدة . . . فقدت وعيى فى الظلام بجانب الطريق ...

(تتضح أصوات جياد تقترب)

الوحوش !..

(تتقدم مستجمعة كل قواها وهى تتألم وتتأوه) تركنى الجميع ..
تركونى للوحوش !.. لابد من سلاح ... سكين أقتلهم به..
أو أقتل به نفسى قبل أن يمسنى أحدهم ...

(تتحامل على نفسها ؛ تقف فتتعثر ، لكنها تتكافح متجهة إلى غرفة الحريم الداخلية. ما إن تدخلها حتى يفتح باب الطريق فى عنف ، ويدخل البارون فيليب دى روزاريو ، قائد فرسان بيزا ، وخلفه تابعه جاستون يمسك يده اليمنى بيده اليسرى ، ويرفعها ليخفف ألما بها)

فيليب : (صائحا فى حدة ، وهو يتحسس بأصابعه خدوشا مستطيلة ، تمتد على طول خده الأيسر) أين ذهبت تلك الشرسه ؟ ! . . (يمد أصابعه أمام عينيه يتأمل الدم الذى يلوثها ، ثم يلتفت الى تابعه جاستون) كان عليك أن تمسك بيديها ، قبل ان تنشب أظافرها المسنونة فى وجهى يا جاستون !..

جاستون : حاولت ياسيدى ، لكنها عضتنى ! (مبالغاً ، يمد يده فى ألم إلى سيده) آه ... لم أحسب المصريات تقاومن بكل هذه الوحشية !.. لقد كادت تقضم إبهامى ..!

فيليب : ليتها قضمت عنقك أيها التابع المفلس الذى لا نفع فيه !.. تتركها تهرب . . لتمتع نفسك بمرأى مشاجرتى مع ذلك المتطفل ؟ ! (يشير إلى غرفة الضيوف) فتش هذه الحجرة ...

لابد أنها فى مكان ما هنا ، فآثار الدماء تنتهى أمام باب هذا البيت . .

جاستون : (وهو يتجه ناحية غرفة الضيوف ،أثناء اتجاه فيليب إلى السلم ليرتقيه) لولا ذلك الفارس الفرنسى المتعجرف الذى تصدى لنا ، لما أفلتت منا أول بضاعة نبدأ بها تجارتنا ... (ينتزع الستائر المدلاة على الباب ،فتقع على الأرض . يركل الباب بقدمه ، ويدخل ، ثم يصيح بسيده الذى أخذ فى ارتقاء السلم) لا أحد . ضاعت جارية تساوى فى أسواق أوربا عشرة أكياس من الذهب ! (فى احتفال صاخب) ولكن ياسيدى . هنا فراش رحب . . يمكن لاثنين أن يتمرغا عليه !

فيليب : إذا لم نجد الفتاة ياجاستون ، فلا نفع لى من فراشك ! . . فتش غرف الداخل . . (يدخل فيليب غرفة بدر الدين العليا)

جاستون : (وهو يتجه إلى غرفة الحريم) السيد فيليب دى روزاريو قائد فرسان بيزا . . وأشطر تجارها ، لا يعود أبدا صفر اليدين . . (يشير إلى نفسه) لابد من ثمرة لما تجشمه مع تابعه جاستون ... فى هذا السفر الطويل . . (يفتح الباب ويتطلع إلى الداخل . يصيح فى فرحة انتصار مبالغ فيها) . . آه . . وجدتها ياسيدى ! . . ها هى أخيراً . . (يخرج وهو يجر قطر الندى ، ساحبا إياها على الأرض ، ممسكا بها من ذراعيها ، وقدفقدت وعيها . يقفز فيليب نازلا السلم فى سرعة . يندفع إلى تابعه)

فيليب : إلى أين تسحبها ؟ !

جاستون : (مشيراً برأسه الى حجرة الضيوف) إلى الفراش الواسع ياسيدى ! . . .

فيليب : (مشيراً الى الباب الخارجى ، وهو ينحى جاستون عن قطر الندى) أغلق باب الطريق ، وقف داخله لا تسمح لأحد بالدخول : لوشم هؤلاء الفرنسيون الذين تموج بهم البلدة ، رائحة أنثى .. وقد أسكرتهم نشوة احساسهم بأن دمياط أصبحت ملك يمينهم ، لطلب مائة منهم مشاركتى فيها .. !

جاستون : ولكن إذا القى سيدى نظمة إلى تابعه المخلص جاستون ، فلن يقول لا . . !

فيليب : (بتفاخر) هذا صيدى .. لكننى لن أبخل عليك بتذوقه .. (وهو ينحنى ليحمل قطر الندى بين ذراعيه) لكن احذر أن تطل من الباب - كعادتك - وأنا بالداخل ! .. (يشير برأسه الى غرفة الضيوف - يضحكان)

(تئن قطر الندى)

جاستون : لا تأمن لها إذن ياسيدى .. فى اللحظة التى تحسبها قد أصبحت فيها ملك يمينك ، قد تقضى عليك ! . . (تفيق قطر الندى ، وتقاوم فى ضعف محاولة فيليب لحملها) .. لقد أخذت تفيق ، قبل أن نهنأ بوقوعها بين أيدينا ياسيدى !

قطر الندى : (تئن) أبى .. آه .. أين أنا ؟ ! (تتخلص من ذراعى فيليب . تجلس . تنظر مشدوهة الى فيليب وجاستون)

فيليب : (وهو يفكر فى أفضل طريقة لحمل قطر الندى) لن تلبث أن تغرس فينا أنيابها ومخالبها . .

جاستون : أمسك ذراعيها يا سيدى . . . سأمسك أنا ساقيها . .

(يتناول ساقيها قبل أن يبدى سيده أية بادرة على الموافقه ــ ترفسه قطر الندى ، فتطيح به وهى تصرخ فى فزع ، أثناء زحفها مبتعدة فى سرعة نحو باب الطريق)

قطر الندى : اتركنى . . ابتعد . . ايها الوحش . . دعنى . . .

(يقف الرجلان وقد أذهلتهما مقاومة الفتاة التى ظننا أنها فقدت كل قدرة على المقاومة . تلتفت قطر الندى الى باب الطريق ، ثم تقفز واقفة ، وتفتحه صائحة)

النجدة . . . أغيثونى . . .

(يندفع خلفها الرجلان ليمسكا بها ، وصراخها يملأ البيت ، ويترامى عاليا فى الطريق)

جاستون : تعالى يا « مفموصة » . . . هل ستجدين خيرا منا ! . . .

(يحاول جذبها الى الداخل ، وقد تشبثت هى بقائمتى الباب المفتوح ، ووجهها إلى الطريق . لا تكف عن الصراخ)

قطر الندى : اتركنى . . دعنى . . أغيثونى . . .

(يُسمع صوت جوادين يقبلان ركضا ، ثم يتوقفان أمام الباب . وسرعان ما يظهر بالباب فارس فى مواجهة قطر الندى . يرفع يديه ليمسك بهما ذراعيها ، ثم ينتزع قبضتيها من الباب . يدفعها

فى رفق أمامه إلى الداخل ، وقد تقهقر جاستون لمرآه — إنه السير جوفروا دى سارجين) ·

سارجين : (بغير أن يلتفت خلفه) قيّـد الجياد وادخل يا مارسيل ··

(يغلق الباب بقدمه عدا فتحة صغيرة لدخول مارسيل ، ويضع قطر الندى خلف ظهره مستندة إلى الباب · يواجه فيليب وجاستـــون . لا يلبث مارسيل أن يدخل ، ويُحـكم إغلاق الباب . يقول سارجين وهو يشير إلى قطر الندى)

لماذا تعاملان الجارية بهذه الوحشية ؟!

فيليب : (غاضبا) أنت ؟! . أتيت ثانية وراءنا ؟ ! قلت لك هذه من نصيبى !

سارجين : (ببرود) ما دمتَ لا تروق لها ياقائد فرسان بيزا ، دعها لغيرك ···!

فيليب : (محتداً) هذا إخلال منك بأصول الحرب ·· (فى تهكم خفىّ) يا مستشار ملك فرنسا المقدس ··!

سارجين : الأسلاب لنا نحن الفرنسيين أولا !·· إننا نقدم أكبر التضحيات ·· وأبناء بلدنا يـكوّنون معظم فرق هذه الحملة الهائلة ! ···

فيليب : (حانقا) لأن لديكم أعداداً هائلة من السذج ، الذين يعتقدون فى قداسة ملك ، تحكمه أمه المتعصبة !

سارجين : (وقد أخذ يغضب) أمسك لسانك فالملك قادم إلى هنا !···

(إلى مارسيل) اذهب يا مارسيل ، فجلالته ينتظر منه خبرا . . . أخبرهم أن هذه أفضل الدور التى نجت من التخريب . . .

مارسيل : (وهو يخرج) سمعا ياسيدى (يخرج)

فيليب : (مندفعا فى حنق) وهل تحسبنى أخاف ملككم ، ولا سلطان له عليكم ، أنتم نبلاء بلده ؟ !. . .

جاستون : (فى قلق ، لسيده فيليب ، فى صوت لم يفلح فى أن يجعله همسا) لنحسم الأمر !.. ستأتى مع الملك حاشيته ، ويضيع منا الصيد !. .

سارجين : (ملتفتا إلى قطر الندى ، يقول كردّ على جاستون) لا تخافى . . لن أشرك معى تابعى ، كما يبدو أن هذا التاجر يريد أن يفعل ! . .

قطر الندى : (وقد فطنت إلى أن حاميها ليس إلا ذئبا آخر ، تصرخ وهى تنسحب ورجله لصق الحائط فى اتجاه غرفة الضيوف) وحش... كلكم وحوش . . .

(يحاول سارجين إيقافها) . . . دعنى . . .

(يقترب فيليب منها) . . . ابتعد عنى . . .

(تندفع فجأة إلى غرفة الضيوف . يندفع الجميع خلفها . يتصدى سارجين لفيليب وجاستون) .

سارجين : (آمراً) اتركاها ! . .

(يقف فيليب وجاستون وقد فوجئا بلهجته الحاسمة . يَحُول سارجين بذراعيه بينهما وبين اللحاق بقطر الندى ، فيتيح لها بذلك أن تدخل الحجرة)

سارجين : (ملتفتا إلى قطر الندى ، يقول لها مهددا) إياك وفتح النافذة ! .. تابعى خارجها مع الخيل ...

(تغلق قطر الندى الباب فى وجهه بعنف) .

(يواجه سارجين فيليب وجاستون بلهجة حاسمة)

يجب أن يجد جلالته الدار خالية معدة لاستقباله ! ...

فيليب : أنت تطردنى ؟!

سارجين : هذه دمياط فسيحة متسعة أمامك (ساخراً) أنشىء فيها ما كنت تحلم طوال الطريق بافتتاحه من مخازن ومتاجر ..

فيليب : (محتدا) وهذه مصر أمامك ، اقتطع لنفسك منها إمارة تعوضك عن إمارة الشام .. التى طردك منها المصريون منذ خمسة أعوام ! ..

سارجين : مهما أخذت فلن آخذ إلا حق ! .. قضيت هذه السنوات الخمس أجمع الجيوش فى فرنسا ، وبغيرى لن يستطيع أحدكم التفاهم فى هذا البلد ! ..

فيليب : (صائحا فى احتقار) كفاك تفاخرا بقدرة لن تجديك ! ما نفع معرفتك باللغة العربية ، ونحن لا نجد من أهل هذا البلد من نتفاهم معه ؟!

سارجين : (صائحا ، وهو يشير إلى جاستون) يحسن بك أن تخرج من هنا مع هذا الصعلوك فورا ! ..

فيليب : (لتابعه جاستون) أترى كيف يستفزني يا جاستون ؟! . . .
هل يلومني أحد لو قتلته الآن ؟ !

سارجين : يبدو أنه أنت الذى يصر على ملاقاة الموت ، فى يوم هذا
النصر الذى أتينا به سهلا إليكم ! .

فيليب : (مجرداً سيفه) أيها النبيل المفلس ! . .

سارجين : (مجرداً سيفه هو الآخر) أيها التاجر الجشع !

(تبدأ بينهما مبارزة حامية وهما يتصايحان)

جاستون : سيدى . . . إنكما تفسدان يوم النصر . . .

(يستمران غير آبهين بجاستون . يدوى نفير فى الخارج ، فيفتح جاستون باب الطريق ، وما إن يطل خارجه ليعرف جلية الأمر ، حتى يتحول فزعا إلى الداخل) سيدى . . . الملك ! . . قد أصبحته قادم ومعه الملكة . . . ! !

(تسمع أصوات جياد كثيرة تقترب ثم تتوقف . يدخل الملك لويس وشارة زهرة الزنبق البيضاء تميز ملابسه ، وقد استندت إلى ذراعه زوجته الملكة ، يتبعهم السيرى جوانفيل صديق الملك الحميم . يدخل خلفهم جوزيف وريشار تابعا الملك ، يحملان بيارق عليها رسم زهرة الزنبق البيضاء — شارة البيت المالك الفرنسى — ومعهما مارسيل)

الملك : (وقد شاهد المتبارزين) هذا مستشارى يشترك أيضا فى الفوضى ! .

(يكف سارجين وفيليب عن المبارزة)

سارجين : (إلى الملك ، فى حدة) أهل بيزا لم يكفهم كل ما منحناهم من امتيازات يا مولاى ، فجاءوا يتهجمون على

الدار التي استخلصتها بشق النفس من الخراب ، لتستقر فيها جلالتكم . . !

فيليب : (محتدا لهذا الكذب) هو الذي اقتحم على الدار ، يريد أن يغتصب مناجارية اختفت هنا . . (يشير الى حيث دخلت قطر الندى)

الملك : (فى تأنيب) تتخاصمان هنا من أجل جارية . . ! والفرسان الهيكليون يتقاتلون مع فرسان القديس يوحنا ، لاقتسام مانجا من النار التي أشعلها الأهالى فى كل شيء . . . (يلتفت الى من حوله) . . الإنجليز يتبارزون مع الفرنسيين . . وكلاهما يتشاجر مع الإيطاليين ! . . (لجوانفيل) ياسير دى جوانفيل : أين الكونت سيرانودى نافار قائد الفرسان ؟ . . لم أره منذ نزلنا شاطىء دمياط . . . يجب أن يمسك بزمام فرسانه ، ويوقفهم عما يفعلون . . . (يصمت لحظة . يدير رأسه الى سارجين . تزداد نغمة التأنيب) ولكن . . لماذا يسكتون ، ومستشارى نفسه يتبارز مع قائد جند بيزا ، من أجل جارية مصرية ؟! . .

الملكة : نادها ياسيردى سارجين . . . قل لها إننى سأسبغ عليها حمايتى . . .

سارجين : (يتأهب لمناداة قطر الندى . يتردد . يقف لحظة مفكرا ، ثم يعود إلى الملكة ، وقد فهم من عبارتها الاخيرة أنها قد تحرمه من الفتاة ـ يسأل ، محاولا أن يفهم قصد الملكة فى وضوح) مولاتى . . إننى

فى حاجة إلى خادم خلال إقامتى فى دمياط ...؟!

الملك : (لسارجين)ومن قال إننا سنقيم فى دمياط ؟! .. ما إن تنتهى احتفالات النصر ، حتى نبدأ زحفنا إلى المنصورة ، ومنها فورا إلى بابليون بالقاهرة ...

الملكة : (فى تأكيد) أريد أن أرى الفتاة ياسيردى سارجين ! ..

سارجين : (وهو يتجه إلى حجرة الضيوف) هاهى يا مولاى .. ! (يفتح الباب وهو ينادى) أنت يامصرية.. تعالى هنا.. (لا ترد قطر الندى ، فيدخل ، ثم سرعان مايخرج وهو يجذب قطر الندى ، وقد أمسك بذراعها) تعالى ... تريد الملكة أن تقدر ذوق فى انتقاء الجميلات !..

قطر الندى : (وهى تحاول أن تتخلص من قبضته) اتركنى .. !

الملكة : (تتأمل قطر الندى) اعترافا بجمال ذوقك ، أؤكد لك أن هذه الفتاة تروق لى !

سارجين : (فى سخط ، وهو لايترك ذراع قطر الندى) مولاى ... أنا لم أربح شيئا من هذه الحرب حتى الآن ..

الملكة : إذا علمتها لغتنا ، أصبحت وسيلتى إلى التفاهم فى هذه البلاد ...

الملك : لن تتيح لك انتصاراتنا المتلاحقة ، أن تلقنها أى شىء ! .

الملكة : (فى لهجة ذات معنى!) أعتقد أنه لى ، مادامت الملكة الوالدة

لم تجئ معنا .. أن أتولى – على الأقل — اختيار خدمى !..

الملك : (ليحسم الأمر كله) ياسيردى سارجين : تُحسن صنعاً إذا ذهبت مع زميلك البارون فيليب، لترشدا الكونت دى نافار – قائد الهيكليين – إلينا ... (للجميع) فأنتم ترون أن مشاورته أصبحت ضرورة عاجلة ... !

الملكة : (لسارجين ، وقد كسبت المعركة) ودع الفتاة تعود لتستريح حيث كانت ياسير دى سارجين !..

سارجين : (لقطر الندى ، فى حنق شديد) عودى . . عودى واستريحى ... (مشيراً إلى نفسه) مولاتنا تريدك أن تفقدى خير رجال فرنسا !.. (يقول هذا ويتجه إلى باب الطريق فى خطوات غاضبة محتدة ... يخرج وخلفه تابعه مارسيل ، ثم تسمع أصوات خيلهما تبتعد . تكون قطر الندى قد اتجهت متعبة مرهقة إلى حجرة الضيوف حيث كانت ، وتدخل . أما فيليب ، وقد تأكد أن الفتاة لن تكون لسارجين ، فإنه يتجه إلى باب الطريق ويطل منه ، وإذ يجد أن سارجين قد مضى ، يلتفت إلى تابعه جاستون)

فيليب : هيا يا جاستون (يخرجان ، ويسمع صوت خيلهما تبتعد)

الملك : (للملكة ، فى تأنيب مستتر) ما كان يحسن أن تسبغى حمايتك على كافرة .. !

الملكة : (فى تحدّ مستتر) وهؤلاء السفراء الذين استقبلتهم فى قبرص، من المغول عبدة الأوثان ..؟! ومحاولتك الاتفاق مع اسماعيلية الشام الحشاشين ؟! .. هل هؤلاء جميعاً مسيحيون مؤمنون ؟!

(فى تهكم خفىّ) وفى مصر ، لم يأت مسيحىّ واحد ليرحب بنا !!

(يدخل الكونت روبرت دى آرتوا أخو الملك ، وشارة زهرة الزنبق البيضاء تزين ملابسه)

آرتوا : (وقد سمع عبارة الملك الأخيرة ، يقول فى صخب واحتفال) . .

أخى ومولاى . . . مالمملكة غير راضية ؟ !

(يدوى صوت انفجار ، ومعه صرخات بعيدة ، فيكمل آرتوا)

آه . . . هذا صوت غريب على حفلات النصر ياأخى الملك . . !

جوانفيل : (لآرتوا ، فى قلق) هذا صوت لا يُسمع ياصاحب السمو ، إلا من قذائف أسلحة الحصار . . .

الملك : (فى ثقة وتأنيب) أى حصار ومصر كلها أصبحت عند أطراف أصابعنا . . والاستعدادات قائمة على قدم وساق ، لتنظيم مواكب النصر واحتفالاته ؟ ! . . (لآرتوا) ألم تر الكونت دى نافار ياأخى روبرت ؟

آرتوا : (فى صخب ومرح ، وكأنما الأمر ليس إلا مشهداً مسلياً غاية التسلية)

ازداد جنون فرسانه الميكليين ، وهم يتنازعون الأسلاب . .

وغرق فرسان القديس يوحنا ، مع فرقة الإنجليز ، فى مخزن خمر . . . اما عامّة الجند والصناع ، فلولا حرسك الواقف بالخارج ينبىء عن وجودكم هنا ، لحطموا هذا البيت أيضا ! . .

(يضحك) لست أرى داعيا لكل ذلك الإعداد للحفلات ، فكل جماعة تحتفل بالنصر على طريقتها ! . .

الملك : (جادا لجوانفيل ، يريد أن يُشعر آرتوا بخطورة ماقال) هذه أمور لابد من علاجها فورا ياسير دى جوانفيل . أرجو أن تحمل رجائى لمن تجدهم من القادة ، بأن يلزِموا فرسانهم وجنودهم جادّة النظام ...

آرتوا : (فى لهجة تشى بالمرح ، وكأنما الملك يهتم بما لا حاجة شديدة للاهتمام به) لن يفيد الرجاء كثيرا ... فهذا يوم نصر ياأخى لويس!.. (يُسمع صوت انفجار آخر مكتوم) قد يكون السؤال عن سر هذه الأصوات ، أولى بعنايتنا ... (يلاحظ امتعاض اخيه ، فيقول لجوانفيل فى نفس مرحة) انطلق ياسير دى جوانفيل . . ستمتع نفسك بمشاهدة جنودنا ، وقد انطلقوا على سجيتهم . . .
(يخرج جوانفيل)

الملكة : (لآرتوا) أود لو أراك قلقا مرة ... بساطة تناول سموك للأمور ، ستخل يوما بتقديرك لها . . !

آرتوا : (للملكة ، لايريد أن يفقد مرحه ، رغم ضيقه بلهجتها) لا . . لم نعتد هذه اللهجة المنتقدة ، من زوجة أخينا العزيزة .. (للملك) منذ ابتعدَتْ عن والدتنا ، تغير فى جلالتها شىء كثير !..

الملكة : أخشى على انتصاراتنا ... من يفقد السيطرة على جنده عند النصر على هذا النحو ، لن يستطيع أن يمسك بزمامهم عندما تلوح هزيمة !

الملك : لن تلوح أية هزائم يازوجتنا العزيزة . . لقد انتصرنا ، وكان

انتصارا كاملا ...

(يدخل مارسيل فزعا مبتلا ، ممزق الثياب ، مسود الوجه ، وقد احترقت بعض أجزاء ملابسه)

مارسيل : (صارخا فى ارتياع) مولاى .. الموت المريع يا مولاى ...

آرتوا : (آمرا) أمسك زمام نفسك ..! لماذا تبدو على هذه الحال ؟!

مارسيل : (فى هلع وانفعال بالغين) احترق أحد عشر من بحارتنا ياصاحب السمو ... دون أن نستطيع إنقاذ واحد منهم .. !

الملكة : ياللكارثة نستهل بها احتفالات النصر ... !

مارسيل : (وقد تزايد انفعاله) سقطت كرة مشتعلة على سطح سفينة .. وانفجرت بصوت عظيم ، فاندلع منها لهيب مريع .. نار حامية التهمت الرجال ، وصهرت الحديد ، وجعلت من سفينتهم شعلة أضاءت الماء الى أميال عدة ...

الملك : (فى أسى) أحد عشر من أبطالنا .. !

مارسيل : ... اندفعت مع كثيرين فى الماء ، نحاول تسلق السفينة المحترقة لإنقاذهم .. فردتنا اللهيب . . وكادت النار تقضى علينا نحن أيضا . . (متذكرا فى هلع) يالبشاعة رائحة اللحم الآدمى المحترق يامولاى !..

آرتوا : ... ومن أين سقطت تلك الكرة الميتة ؟

مارسيل : من الفضاء ياصاحب السمو ... أمطرتها السماء من حيث لا يدرى أحد ... ولم تلبث أخرى أن عبرت السماء أمام

عيوننا الفزعة ...

الملك : ألم يذهب أحد للبحث عن مصدر هذه النار المشئومة ؟

مارسيل : انطلق سيدى السير دى سارجين خارج البلدة ، عله يعثر على شيء .. وقابلت السيردى جوانفيل ، ذاهبا ليحقق الأمر بنفسه ... أى هول عانيناه يا مولاى ! .. (يرى السيردى سارجين داخلا) .. ها .. لقد عاد سيدى ...

(يدخل سارجين ووجهه ينطق بالحزن والكآبة)

الملك : (لسارجين) هيه ... هل وجدت شيئا يكشف سر تلك النار ؟

سارجين : (بكآبة وتؤدة) ... لقد وجدت الكونت دى نافار ..

آرتوا : (فى صخب ، محاولا أن يخفف جو الكآبة الذى فرضته أخبار الموت) قائد فرساننا الهيكليين البواسل ؟ !

سارجين : (بنفس الكآبة) هو يا مولاى ...

الملك : (قلقا ، وقد أخذ يلاحظ ما فى لهجة سارجين من أسى) ولماذا لا يدخل ؟ !

سارجين : (وكلماته تقطر أسى) نُدخله يا مولاى ...(يتطلع إلى الخارج . يصيح آمراً) ادخلوا ...

(يدخل أربعة جنود يحملون محفة عليها جسد . تصيح الملكة فى جزع ، ويندفع الملك إلى المحفة ، وينحنى فوق الجسد)

الملك : (صائحا مختنقا بالبكاء) عزيزى كونت دى نافار ...

آرتوا : (سائلا ، وقد تخلى عنه صخبه) هل ... هل مات ؟

سارجين : وجدناه فى دار خارج سور البلد..وقد أصابته طعنة نافذة إلى القلب . .

الملك : (سائلا فى حزن ثقيل) طعنة سيف ؟ . . .

سارجين : (وهو يبرز سكينا قصيراخشنا) بل طعنة من هذا النصل . . . سكين صغير مما يستعمله فلاحو مصر . . ! !

(لحظة صمت ، يقطعها صوت الملكة مملوءاًبالألم والكآبة)

الملكة : (للملك) هذا هو النصر الكامل يامولاى !

الملك : (لسارجين) ألم يكن ثمة حرس معه ؟

سارجين : (فى حزن ثقيل . . .) كان معه عشرة رجال ، تركهم ودخل الدار مع امرأة . ولما طالت غيبته دون أن يسمعوا صوتا ، دفعهم قلقهم إلى الدخول .. هناك لم يجدوا إلا الجسد منكفئاً على سرير ، وقد غرق فى بحر من الدم المتدفق ...

الملك : وقبضتم على الجناة ؟

سارجين : (وقد فاجأه السؤال) الجناة ؟ ! .. (يهز رأسه فى كآبة بما يفيد النفى) .. كلا .. !

آرتوا : وأين الجنود الذين كانوا مع قائدنا العظيم ؟ .. (يشير إلى حملة الحفة) هل هؤلاء منهم ؟

سارجين : (يردد لحظة) .. كلا ... (صمت . يرى الجميع يتطلعون

إليه ينتظرون منه شرحا ، فيكمل) . . . أرسلت الآخرين للبحث فى المزارع والمستنقعات ..

الملك : (قلقاً) وأين هم ؟ !

سارجين : (مترددا) لم .. لم يعد منهم أحد يامولاى ...

الملك : (فى بطء) لم يعودوا ؟! ماذا تعنى بأن أحدا منهم لم يعد ؟ !

سارجين : طين المستنقعات رخويا مولاى ... سمعت صرخات مرعوبة ، فانطلقت فى ضوء السفينة المحترقة ، لأرى ثلاثة منهم.. يرفعون رجلا خارج الطين ، فتغرس الأخرى ، دون أن يجرؤ أحد على التقدم لنجدتهم . . فغاصوا .. حتى امتلأت أفواههم بالطين .. كأنما أرواح شريرة تجذبهم إلى باطن الأرض !

(حالما يسمع الحاضرون لفظ الأرواح ، يرسمون علامة الصليب)

آرتوا : سمعت أن الأرواح .. طالما أغرقت السفن ، أثناء دخولها من البحر الى النيل ..

الملك : (سائلا سارجين ، وقدغمرته الكآبة والحزن) وبقية الرجال ؟ !

سارجين : يبدو أنه لم يتعذر على مثل السكين التى قتلت قائدنا ، وبالقرب منه عشرة رجال ، أن تسدد طعنات غادرة الى سبعة جنود ، أخفتهم عنا نباتات المستنقعات !..

الملكة : (مأخوذة بضخامة المأساة) ولم تعثروا على واحد منهم ؟!.

سارجين : رأيت أحدهم وقد برز من الحلفاء ، فلم أعرف أبشر هو

أم وحش غريب • • (منفعلا) كان الوجه مقسوماً بطعنة مستعرضـة غـائرة ، غاصت •• حتى قطعت الأنف ، والوجنتين ، وكادت تصل الى الأذنين . . فجعلت الوجه كله فما واحدا هائلا مفتوحا ، يفور بالدم ... ثم سقط ، وغاص فى الماء الضحل .. قبل أن أفيق من هول مارأيت..

الملك : يالفظـاعة . . (لسارجين ومن كانوا يحملون المحفة) كـيف تتركون اخوانـكم هكذا للموت ؟ !

سارجين : (مشيرا إلى من كانوا يحملون المحفة) خشى الجنود الذين تجمعوا من انتقام الأرواح • • • يعتقـــدون أنها اعتصرت الحياة من زملائهم ، الذين انطلقت منهم صيحات يملؤها الفزع ، فـلم أعرف أنا نفسى ، هل يصارعون بشرا أم شياطين • • !

الملك : (للجنود ، فى تأنيب قاسى) أحجمتم يا قليلى الإيمان عن إغاثة زملائـكم ! ! نسيتم قول النبي داود « الرب راعيّ فلا يعوزنى شيء • • وإذا سرت فى وادى ظل الموت ، لا أخاف شرا »

سارجين : (يتحول شيئا فشيئا من الـكآبة إلى التحدى والصلف ، إلى طبيعته) ولـكنهم يخافون الطين والحلفاء ، وذلك الخطر المجهول الرابض فيهما • • • يقولون : جئنا نخلص بيت القدس ، فقذفتمونا على هـذا الشاطىء الطينيّ البعيد • • • ما كان يجب أن نأتى هذه البلاد يامولاى ، بعد أن هُزِمْنا فيها منذ

أقل من ثلاثين سنة ، هزيمة نكراء !

الملك : أى مشروع لإخضاع الشرق لن يفلح ، مالم يجعل هدف هجومه مصر . . لا بيت المقدس . . . إذا انتزعنا القلب ، استسلم الجسد كله هامدا ...

سارجين : (فى إصرار) تلك الرؤيا التى تجلَّت لجلالتكم خلال مرضكم ، أوحت اليكم باسترداد بيت المقدس ، لا مصر !

الملك : (فى قوة المؤمن بما يقول) من مصر ، انطلقت كل الحملات التى ضيّعت انتصاراتنا السابقة ... منذ ستين عاما ، جاءنا منها سلطانها القوى صلاح الدين ... ومنذ خمس سنوات فقط ، هزمكم السلطان الذى يقاوم المرض بكل ذلك الإصرار !

آرتوا : (فى اندفاع) ومن مصر ، سنستولى على ثروتها التى لا حدّ لها .. على غلاتها لنحل أزمات جوع أوربا .. على صنّاعها يُبدعون لنا كل فن ، وعلى مدنها وثغورها لتصبح مراكز لتجارتنا وقوافلنا . .

الملك : لا تصرفوا الأنظار عن هدفنا الحقيقى . . إنما نسعى لمجد الله يا سادة . .

(يدخل جوانفيل ، ويسقط بصره على الجسد المغطى . يسأله الملك فى لهفة) ماوراءك ؟

جوانفيل : انتشر خبر موت الكونت دى نافارهو وحراسه . . فزعزع

نفوس الجنـد ، وصرفهم عن الاستعدادات لاحتفالات النصر !..

الملك : (فى تصميم ، ليغطى ما أصابته به اجابة جوانفيل من خيبة) لن يقعدنا فقده عن المضى قدما ... مصر سهل منبسط مكشوف ، من الهـيّن غزوه ... سنغادردمياط ، ونسيرفوراً إلى أهدافنا .

جوانفيل : لقد سرى رعب قاتل بين جنودنا ، حتى عصوا كل أوامر قادتهم . أصبحوا يؤمنون أن المزارع والبرارى خارج دمياط، مملوءة بالشياطين .. التى تقذفنا بالنار .. وتتخطف — بغير شفقة — كل من يغادر الأسوار ...

الملك : بل سننطلق خلال أيام ، فى الطريق إلى المنصورة ...

جوانفيل : سيرفضون التقدم خطوة واحدة فى هذا الطريق .. إن النيل يحصره من جانب .. وبحيرة تانيس من جانب آخر، والأحراش والمستنقعات .. المليئة بالخطر والأعداء .. تحفـّه كثيفة من الجانبين ...

الملك : من يخشى السير على الشاطىء ، فله مكان آمن فى السفن ... لقد فرّ جيش المماليك ، واختفى الشعب مذعورا ..(لسارجين) مم يخاف جنودنا ؟

سارجين : أصبحوا فوجدوا كل سلاحهم وتدريبهم وشجاعتهم ، لا قِبَل لها بملاقاة ذلك العدو المجهول، الذى تلقّف زملاءهم!...

عدو . . نجهل مكانه وسلاحه ، ولا نعرف أين يوجه ضربته ، ولا متى يوجهها . .

الملك : (فى قوة) ثقوا أنه لم يبق أحد ليقاومنا ! . .

سارجين : (فى حدة) بل بقى من نحتل الآن دورهم ، وتشتعل النار فى مخازنهم ، ويتقاتل رجالنا على من بقى من نسائهم . . . لقد هربوا من دمياط ، خشية أن ننزل بهم صنوف الوحشية والذل ، كما فعل جنود الحملة السابقة بهم . . . هربوا . . . لكنهم يعرفون أنهم عائدون . . هل تظن أنهم سيتركون طويلا ، فتاة كالتى بالداخل بين أيدينا ؟ !

(يبرق فجأة ضوء أبيض يلتمع فى النافذة المواجهة ، فيضيئها ، بعد أن كان قد خفت ما انعكس عليها من أضواء الحريق ، ويزداد تبعا لذلك الضوء فى المسرح ، منعكسا من البهو غير المسقوف . . ثم يترامى صوت انفجار)

جوانفيل : أتسمع هذا يا مولاى ! . . . إن السير إلى المنصورة ، اقتراح يجب إعادة النظر فيه ، وليس الآن وقت تنفيذه . . .

الملك : (فى حزم وتصميم) لتذكر يا سيردى جوانفيل ، أنكم ، عندما اقتربنا من شواطىء مصر ، أشرتم علىّ بالانتظار فى عرض البحر ، حتى تصل بقية السفن . . لو كنت قد أصغيت إليكم ، وتركت إلهام الرب ، لما ظفرنا بهذا النصر السريع . . الذى مهّده لنا نزولنا إلى البر . . (فى حزم)

لقد أتينا تنفيذاً لمشيئة الرب ... خط سير الحملة لن يتغير .. !

(يلتمع ضوء آخر .. فانفجار ، فيشتد اللهب)

جوانفيل : الانفجارات تتوالى ...

الملكة : (تنظر بهلع إلى النافذة والسقف غير المغطى) السماء تعكس أضواء حرائق مروعة أخرى .. !

جوانفيل : (وهو يتطلع من باب الطريق) ألسنة اللهيب تتعالى من وراء دور البلدة هذه المرة . . .

سارجين : (في انفعال ، وقد فهم) من سطح النهر .. !

(يدخل فيليب مذعورا)

فيليب : (في رعب) الأسطول يامولاى ! ! . .

آرتوا : (باندفاع) كل هذه النيران فيه ؟ !

فيليب : (في انفعال عظيم ، يوجهه الفزع والارتياع) الكرات الصغيرة المشتعلة ، تنقض بغير توقف على السفن والشوانى ..

سارجين : (يائساً) لن تكون السفن أكثر أمنا من طريق المستنقعات ! ..

فيليب : (مكملا في ارتياع) النار تنتشر من سفينة إلى سفينة .. قطع من الجحيم الحقيقى ، كست باللهب عشرات منها .. النار لا تترك كل ما تمتد إليه ، إلا جملته رمادا تذروه الرياح !

آرتوا : (في كمد) الأرواح الشريرة ترعب الأسطول ، كما أرعبت الجند ! ...

(يتعالى لهيب جديد . يسمع صوت انفجار آخر . تشتد انعكاسات النار) .

الملك : (يشد قامته ، وقد تأهب لإصدار أخطر القرارات . يهتف بمن حوله منبها . .) ياسادة.. (يجذب صوته الحاسم الجميع ، فيتركون التطلع إلى النار ، ويتطلعون إليه) أبحروا بالسفن من النيل ٠٠ اخرجوا بها جميعا إلى عرض البحر ...!

آرتوا : (دهشا) سنبعد عن طريق المنصورة ؟!

الملك : (في نفس القوة) سنبقى في دمياط ٠٠ نحصنها لنحمي أنفسنا ٠٠٠ (يخيم الصمت على الجميع ،فيجول بعينيه سائلا) هل بقي شيء يتعين علينا العناية به ياسادة ؟

سارجين : (منفعلا ساخطا) بقي أن نبث الشجاعة في نفوسنا ٠٠٠ وأن نعرف سر هذا العدو المجهول ، الرابض لنا خلف دمياط !٠٠ مولاى ٠٠ (يلتفت إلى الملك،ويقول في صوت حاسم واضح يتفجر بالأسى) ألغوا كل احتفالات النصر ٠٠٠ !

(تتطلع إليه كل العيون ،وقد امتلأت بالحيرة والذهول)

يتزل الستار

الفصل الثاني

المنظر الأول

(عند الغروب من يوم الإثنين
السابع من فبراير عام ١٢٥٠ .
خيمة الملك لويس على الشاطىء
الشمالى لنهر « بحر أشموم »
— البحر الصغير — الذى يخرج من
فرع دمياط ، إلى الشمال من
المنصورة ، ويصب فى بحيرة تانيس
ـ المنزلة ـ)

(فى بداية الفصل ، لا نرى إلا المساحة الواقعة خلف خيمة الملك لويس الحمراء ، وعلى الجانب الأيمن منها شجرة جميز ضخمة .

عندما يرتفع الستار ، نرى جوزيف — تابع الملك — فى نوبة حراسته ، وقد وقف مارسيل يصب ضيقه فى أذنيه)

مارسيل : (فى سخط) لم نستطع العثـــور على المصريّيْن . . اللذين يعيثان فسادا فى المعسكر منذ الصباح . . ! أى لعنة قذفت بنا إلى شاطىء هذا النهر المشئوم !

جوزيف : (محذراً) .. اخفض صوتك ..! أصمت كما يفعل غيرك ..!



مارسيل : (وسخطه يتزايد) انقضى شهر ونصف .. ونحن نتطلع إلى المنصورة عبر هذا النهر العميق .. ولا نستطيع العبور ؟ ! لمَ يقف الرب ضدنا ؟

جوزيف : لاشأن للرب بهذا ... المصريون هم الذين يصبُّون علينا كل هذا العذاب ...

مارسيل : (حانقاً) خمسة أشهر من الخوف فى دمياط .. ثم شهر آخر نقفز خلاله فوق القنوات .. ونسد الترع .. ونجتاز المستنقعات المليئة بالرعب والأعداء فى الطريق إلى هنا .. كل هذا ، لنقف أخيراً أمام هذا الشاطىء .. نكتشف صباح كل يوم .. جثث من قضت عليهم طعنات المصريين القوية خلال الليل ...

جوزيف : (محذراً) اسكت وإلا قتلك قادتنا ... إن غفران البابا الذى منحه لكل من اشترك فى هذه الحملة ، قد يمحو جرائم القتل والسرقة والزنا .. لكنه لا يمحو جريمة التمرد عليهم ..!

مارسيل : منذ جئنا مصر ، وأنا لا أنطق بكلمة ... (وكآبة) .. كم بعدت عنى صورة زوجتى وهى تلوح لى ، وسفننا تبتعد عن شاطىء فرنسا .. لم يكن طفلنا الأول قد ولد بعد !.. أتدرى أننى لم أعرف حتى الآن .. هل جاء ذكراً أم أنثى ؟.. (فى لهجة أخف وقعاً) كثيراً ما أحلم أننى عدت إلى بيتى .. (سائلاً)

هل تعتقد أننا سنعود يا جوزيف ؟ . .

جوزيف : (وقد داخله الخوف) احتفظ بخواطرك لنفسك .. اسكت .. !

مارسيل : (غير مكترث بخوف جوزيف) .. هناك شبحان مصريان فى المعسكر اليوم .. ومن يدرى ؟ . . إن الطعنات الصامتة السريعة ، قد تختارنا « نحن » فى المرة القادمة ...

(يدخل جاستون)

جاستون : (فى سخريته ومرحه المعتادين) آه .. تابع الملك يترك باب خيمة مولاه ، ليسمع خلفها درسا من مارسيل .. فى الثورة والشكوى .. !

جوزيف : (مشيراً إلى مارسيل) سيفقد هذا الأحمق رأسه يوما .. !

جاستون : احرصا على رأسيكما .. فقد أصبح لها ثمن !.. (يشير إلى رأسه) أتعرفان كم أصبح يساوى هذا الرأس الفارغ ، الذى أحمله بين كتفى ؟ !

جوزيف : لا يساوى قدحاً واحداً من شعير الخيل .. !

جاستون : التسعيرة أصبحت ديناراً كاملا ... كل مصرى يعود إلى المنصورة ، ومعه رأس أحدنا ، يمنحه سلطانهم جنيهاً ذهبياً غير منقوص ...

مارسيل : (فى كآبة) خلال الأسبوع الأخير وحده ، فقدنا مائة وستين رجلا ! . . .

جاستون : المصريون يربحون ونحن سنعود مفلسين ... لن يجد

الفرسان مقابلا لما تجشموه ، فى نقل ما لهم من خيل وخيام ... وبغال وأتباع ... !

مارسيل : (فى سخرية تقطر تذمرا) وجلالته المقدسة ، لا يكف عن الصلاة ! . . وجلالتها ، تنذر أن تشعل مائة شمعة عندما ننجح فى العبور ... فلا نعبر .. ويتزايد عدد الضحايا ! ..

جاستون : لو سمعك جلالته ، فأنت وحظك ! . . إما أن يلقى عليك موعظة فى الإيمان بالله . . . أو يصدر أمراً بشنقك . . ! !

(يدخل ريشار)

ريشار : (لجوزيف) مولانا يستدعيك يا جوزيف .. (فى سخرية) أسرع .. فأمامه اليوم .. ثلاثة من فرساننا الأبطال !.. .

(يتجه جوزيف وريشار إلى خارج المسرح)

جاستون : (همسا لمارسيل،وهويجذبه معهمتجها إلىحيثسبقهما جوزيفوريشار) هذا مشهد مسل ، لا يجب أن يفوتنا يا مارسيل . أكثر تسلية من حفر الخنادق بغير طائل !. أسرع ..

(يخرجان)

(يرتفع الستارالذى يمثل ظهر خيمة الملك لويس ، ويظهر داخل الخيمة مملوء بأعلام الفرق المشتركة فى الحملة ، ومُحلّى بشارة زهرة الزنبق البيضاء . الأثاث من خشب فاخر .

إلى اليسار ، نضد عليه نموذج مجسم كبير الحجم ، لبرجين بينهما ساتر ، وخلفهما بيتان ليحميا الحراس من قذائف المنجنيق ، وأمام الساتر نموذج لسد حاول الصليبيون

أن يقيموه ليعترض مجرى نهر « بحر آشموم » ليعبروا عليه .

في الصدر مدخل الخيمة مفتوح عن آخره ، وقد ظهرت خارجه ، بقايا أحد البرجين ، وجزء من الساتر ، وقد أحرقتها قذائف النار المصرية ، والمعروفة في التاريخ باسم « النار الإغريقية ». وفي الخلف يظهر « بحر أشموم » .

بالجانب الأيمن ، ساتر يخفي مخدع الملك والملكة عن بقية الخيمة ، وبه فتحة تصل بين القسمين .

عند ما يرتفع الستار ، نرى الملك واقفاً ثائراً ، وأمامه ثلاثة فرسان ، وقف أوسطهم مطرقا ، لا يحاول أن يرفع وجهه إحساساً بالعار ، وشاب وجه الآخرين طابع الذل والمهانة ، وقد جلس حول الملك البارون ريجنالد قائد فرسان القديس يوحنا ، والسير دي سارجين .
يدخل جوزيف وريشار ، ويقف جاستون ومارسيل عند المدخل)

الملك : (صائحا مؤنباً الفرسان) ... عربي واحد يأخذ كل ما كنتم تحرسون من خراف ... ويطردكم حتى تفروا إلى الخيام ؟!
.. لستم بعد اليوم فرسانا ..!

فارس أول : (في دفاع متخاذل) .. فاجأنا من شاطئ هذا النهر الملعون !

الملك : (غاضبا) .. النهر .. النهر .. ! كل مصائبنا تنسبونها إلى هذا النهـــر .. (يمد يده وينزع شارة الصليب عن صدر أحدهما ، وبيده الأخرى ينزع الشارة عن صدر آخر) .. إخلعوا عنكم هذه الشارات ..!

فارس ثان : كان فارسا لم نر لمهارته مثيلا ...

الملك : إبحثوا عن عذر غير الذى نسمعه كل يوم.. لقد كنتم ثلاثة !
(إلى ريشار) ياريشار ... خذ تروسهم .. اجعلها معالف للدواب ...

(يتقدم ريشار ليتناول التروس . يترك اثنان ترسيهما ، أما الثالث فيقول فى تخاذل)

فارس أول : ... تحرمنا من القتال يامولاى ؟ ...

الملك : إن اسطبل خيل جديد بكم ... لاميدان القتال ..
(يسقط الثالث ترسه . ينادى الملك جوزيف)
ياجوزيف .. انزع خيامهم ، وألق بها فى ماء هذا النهر الذى ينسبون إليه عارهم .. (يلتفت إلى ريجنالد وسارجين).. يجب وضع حد لهذا الانهيار .. (للفرسان الثلاثة) .. هيا من هنا..اخرجوا .. لاتمسكوا سلاحا بعد اليوم ..
(يحاول الفارس الأول أن يتكلم ، فيعاود الملك الصياح)
أغربوا من أمام وجهى ..
(يخرج الفرسان الثلاثة مطأطئ الرءوس ، فينفخ الملك ثائرا)
.. واحد يهزم ثلاثة .. !

ريجنالد : (فى سخط) لقد وقعنا فى الفخ الذى اصطاد الحملة السابقة .
ما كان يجب أن نأتى عن طريق شرق الدلتا !

الملك : (غاضباً) أما تكفى متاعبنا مع المصريين والفرسان ؟! . .
أين إيمانك ؟ يجب أن تثق أن كل شىء سيصير إلى أفضل !..

ريجنالد : (ثائراً) بل إلى أسوأ !.. كرات النار الصغيرة. أصبحت براميل ضخمة من الهلاك المشتعل ... (يشير إلى الساتر والأبراج المحترقة ، الظاهرة من مدخل الخيمة) لقد أحرق المصريون كافة تحصيناتنا مرتين ، وهدّمت براعة مهندسيهم فى ساعات .. السد الذى قضينا ثلاثة أسابيع ، نجاهد فى إقامته لنعبر عليه .. (دون أن يخفف من لهجته) هل سمعتما عما حلّ بتابع السيد كورنىّ هذا الصباح ؟ !

سارجين : (سائلا) قتلوا أيضا تابع كبير فرسانك ؟

ريجنالد : (مكملا) خرج يصطاد ، فشاهد فوق ماء النهر بطيختين .. ومنذ نزل يأخذها ، لم يعد ... كانت البطيختان غطاء رأس لمصريَّيْن .. يختفيان تحت الماء ، ويرعبان المعسكر منذ الفجر !

الملك : لو كنتم قد أصغيتم إلى نصحى ، ولم نتلكأ فى قبرص ، لجئنا قبل أن يتم الصلح بين مصر وحلب ... أضعنا الوقت حتى زالت الجفوة بين العرب ، واتحدوا لملاقاتنا ..

سارجين : كان يجب أن نذهب إلى الإسكندرية ، حتى نحتفظ بمعنويات جيشنا . بالإسكندرية ميناء صالح ، والطريق منها إلى بابليون ، لا تحف به مستنقعات ولا أخطار ! إن مجارى المياه .. تنتشر كشبكة الصائد فى طريقنا هنا . .

ريجنالد : (مشيرا إلى نموذج البرجين والساتر المقام بالخيمة) ليست الترع والأنهار هي السبب فيما نعانى ، وإلا لعبرناها بتنفيذ هذه التصميمات الرائعة . السبب أن أحدا لم يكتشف كيف تم هذه الأبراج والتحصينات . . عبر نهر أشموم وعلى شاطئه ، في مواجهة آلاف الرماة .. وتحت رحمة ست عشرة آلة جبارة ، تنتصب على شاطىء المصريين فوق تل جديلة ، وتواصل قذفنا .. ليل نهار .. بسيل من الأحجار والنار ..

سارجين : .. ولم نجد من يعاوننا على أن ننال بالحيلة ، ما لم نظفر به في معركة سافرة .. لقد طال انتظارنا لمعونة من الحشاشين ..!

ريجنالد : (ساخطا) يجب أن نعود من حيث جئنا ، حتى لا يحل بنا شؤم كل من أراد غزو مصر .. هذه أمة ما من أجنبى أراد أن يخضعها لحكمه ، إلا وأفنت شخصيته ، وأذابه شعبها في معدته القوية !..

الملك : (مؤنبا في عنف) يا سادة . . إننا الآن أمام المنصورة . . والعودة إلى دمياط للذهاب إلى الشام أو الإسكندرية ، معناها الموت في الطريق الموحل الذى جئنا منه . . إنه يزخر الآن بجموع المصريين . . يتدفقون حوله بغير انقطاع لملاقاتنا . . .

سارجين : . . وإذا بقينا هنا ، فلن يتركونا حتى يرغمونا على الرحيل ، كما فعلوا بمن سبقونا . . . إن زوج السلطان التى يسمونها شجرة الدر . . قد جمعت الصفوف ، ووحدت القادة . أنست الناس مرض سلطانهم ، وأخفت بمهارة خبر موته . . . أعادت للشعب ثقته فى قائده ابن شيخ الشيوخ . . ووزعت السلاح على كل متطوع من أهل بلدها . .

(يدخل كونت روبرت دى آرتوا أخو الملك)

آرتوا : (للملك، فى صخبه المعتاد) أخبار سيئة يا أخى الملك ! . . (لريجنالد) تسلل مصرى إلى خيام ، ينام فيها ثمانية من فرسانك يا بارون . . . كانوا قد قضوا طوال النهار ، وشطراً كبيرا من الليلة السابقة ، فى حراسة معسكركم ، فسهل على المصرى قتلهم جميعا . . .

ريجنالد : (جزعا) . . يا للكارثة . . . !

الملك : (محذرا) لا ترفعوا أصواتكم يا سادة . . . (يشير إلى الساتر الذى يفصل قسمى الخيمة) الملكة بالداخل . . كلما ترامت إلى سمعها أنباء من قتلوا وهم نيام ، ينتابها الأرق . . ويتزايد شكها فى جدوى هذه الدماء التى تضيع . . .

آرتوا : (وقد خفض صوته ، يتم حديثه إلى ريجنالد) . . . إن القاتل هو نفسه أحد اللذين خطفا تابع السيد كورنى ، وهما يختفيان فى البطيخ . . . لقد وجدنا سكين التابع مكسورة ، وقد

غاصت فى صدر أحد فرسانك . . .

ريجنالد : (وهو يخرج) . . واحد يقتل ثمانية ... ويُغرق التاسع ..
أية أيام سود هذه التى نعيشها . . !
(يخرج ريجنالد يائسا)

الملك : (لآرتوا) وهل قبضتم على الرجلين ؟

آرتوا : قلبنا المعسكر بحثا عنهما . . فعثرنا على رجل ملثم قرب الخيام ، يطلب مقابلة جلالتكم . . . لقد أرانى خاتما أبيض ، عليه شارة زهرة الزنبق . . رمز بيتنا الملكى . . .

الملك : (صائحا) أدخله . . إنه رسول زعيم الحشاشين ، الذى طال انتظارنا له . . .

آرتوا : (وهو يتطلع إلى خارج الخيمة ، ينادى) أدخلوه . .
(يدخل حارسان بينهما شخص ملثم)

الرسول : شيخ الجبل بالشام ، يبعث بتحياته إلى ملك الفرنسيس فى مصر . . .

الملك : وتحياتنا إلى صديقنا الجليل ، سيدك ركن الدين خورشاه . . لعل مساعيكم لبث الفرقة بين الشام ومصر . . قد أثمرت . . فى كل مرة يتحد العرب ، يكون ذلك نذيرا بالقضاء علينا جميعا . . .

الرسول : (يُخرج دَرْجاً ملفوفا) هذا خط شيخنا يا ملك . . (يمد يده بالوثيقة ، فيتناولها منه سارجين) . . سنعاونكم فى استرداد

الشام ، كما عرضتم علينا ... فتكون لكم بيت المقدس ، وكافة إماراتكم التى سبق أن حكمتموها هناك ... أما بقية الشام ، فتُترك للإسماعيلية .. حافظى أسرار الدين ...

سارجين : (بعد أن قرأ الوثيقة) .. لكنكم لم توفوا حتى الآن بشرطكم ! ... لم نر أثرا لما وعدتمونا به ، من معونة لأخذ مصر ...

الرسول : (سائلا) .. كم يوما ضيعتموها وقوفا هنا .. تتطلمون إلى العبور بغير طائل ؟

الملك : (فورا) تسعة وأربعين يوما ..

الرسول : (وقد وجد الملك يذكر الرقم دون تردد) آه . القلق يدفعكم إلى إحصاء الأيام !..

آرتوا : بل الملل . . إننا نتحرق شوقا إلى معركة حاسمة على الضفة الأخرى ! . .

الرسول : .. إذا أعطيتمونا الآن العهد والميثاق ، فلن يشرق اليوم الخمسون ، إلا وتكونون قد عبرتم هذا النهر... إن فداويينا ينتشرون فى كل مكان !..

آرتوا : (للملك) أعطه العهد ياأخى المقدس . .

الملك : (بغير تردد) باسم الله .. أعطيك العهد والميثاق .. الرب يشهد على التزامنا بتنفيذ ما عرضته علينا الآن !

الرسول : (وقد لاحظ سرعة إعطاء الملك للعهد) تمطى العهد فى سرعة

وبغير تردد .. ! إحذر يا ملك .. إن الإخلال بوعد يُقطع للإسماعيلية .. وزعيمهم شيخ الجبل ، يجلب متاعب لا تنتهى .. !

الملك : لقد خَبَرْتم تمسكنا بما بذلنا لكم من وعود ، خلال الحروب الصليبية السابقة ...

الرسول : إنها وعود ، لم تُتَح لكم فرص كثيرة للوفاء بأخطرها !..

سارجين : لولا الوحدة العربية المتينة .. التى أفلح صلاح الدين فى خلقها وتقويتها .. لكنا الآن شركاء فى حكم الشرق منذ ستين عاما ...

الرسول : (فى غموض) الأيام تُظْهِرُ المستور ... (للملك ، فى لهجة الرجل العملى) لكننا لا ننتظر الثمن الآجل وحده يا ملك ...

الملك : لن نغلق خزائننا دون ما يطلبه رجالك ...

الرسول : اتفقنا إذن .. السلام على ملك الفرنسيس ...

(يتحول الرسول ويخرج فى اعتداد وخطوات سريعة ، دون أن ينتظر ليسمع رداً على تحيته)

الملك : (ممتعضا) .. إنهم يبالغون فى الاعتداد بقوتهم ..

سارجين : هل يُعْقَل أن تتم الليلة بمعونتهم .. ما فشلنا فيه شهرا ونصف شهر ؟!

آرتوا : ... الحكمة أن نستفيد بكل ما لديهم .. ثم ندبر أمر التخلص منهم ...

الملك : (مؤنبا) لا يتفق هذا التدبير .. مع تعاليم المسيح !..

آرتوا : أى فرق بين كتمان ما يجول فى خواطرنا جميعا ... أو الإفصاح عنه ؟! فليدلونا على وسيلة لعبور النهر، وليذهبوا بعد ذلك إلى الشيطان ... عليهم فقط أن يعجلوا ...

(يدخل ريجنالد فى ضجة على رأس عدة حراس، يقودون بينهم بطرس الصراف وملابسه ملطخة بالدم، تتنازعه الجرأة والخوف . ويمسكون أيضاً بجندى صليبي ضخم الجثة، فارع الطول، حتى ليبدو بطرس قزما بجواره)

ريجنالد : (مشيرا إلى بطرس فى عصبية) أعتقد أن هذا هو المصرى، الذى قتل ثمانية من خير فرسانى اليوم .. (مشيرا اليه، ثم إلى الجندى الصليبي) قبضوا عليه، وهو يرشو هذا الخائن ليطلق سراحه .. بعد أن عثر عليه مختفيا فى خيمته !

المرتشى : .. رؤساؤنا يأخذون الفدية، لإطلاق سراح من يقع فى أسرهم من فرسان! ..

الملك : (مستنكراً) يأخذون الفدية قبل نهاية الحرب؟ .. يأخذون الفدية .. ليتركوا عدوًّا وسط خيامنا، ليكمل قتل رجالنا ؟!

(إلى الحراس، مشيرا إلى المرتشى) خذوه واشنقوه ..

المرتشى : (باكيا) الرحمة يا مولاى .. لم أفعل إلا ما يفعله السادة كل يوم ..

(يجذبه الحراس)

ريجنالد : (للحراس) خذوه . ..

(يخرج الحراس يجذبون معهم الصليبي المرتشي ، وهو يطلب الرحمة عبثـا)

سارجين : (مشيراً إلى بطرس) إذن أنت الذي قتل فرساننا اليوم ؟ . . أين زميلك ؟ !

(يسكت بطرس)

ريجنالد : (في حقد شديد) تـكلم أيها الغادر ! . .

بطرس : (ولم يفارقه تهيّبه ، لا يوجه الحديث إلى شخص بعينه ، كأنما يحدث نفسه) . . الغادر من يعتدى بغير مبرر . . !

الملك : آه . . . كيف تعلمت لغتنا أيها العربى ؟ !

بطرس : (وقد استعاد شيئا من ثقته بنفسه) تعلمتها من نائب البابا فى بيت المقدس . .

الملك : (دهشا) أنت مسيحى ؟ !

بطرس : وترجمت بعض كتب المسيحية إلى العربية . . .

الملك : (دهشا) كيف تشترك إذن فى العدوان علينا؟ ! . . . ألا تعلم أننا جئنا خصيصا لحمايتكم ؟ !

بطرس : (فى سخرية خفيّة يشوبها القلق) حمـايتنا ؟ ! . . أنا أعلم من تجربتى أمراً مؤكدا . . . أنـكم معتدون ، ونحن معتـدى علينا . . لا فرق بين مسلم ومسيحى . . .

سارجين : هل هذا ما تعلمته فى بيت المقدس ؟

بطرس : بل تعلمته منكم ! .. هدمتم كنيسة أحد الرهبان فى دمياط منذ ثلاثين سنة ، فصحبنى معه إلى الشام .. هاربا من .. حمايتكم ! ..

ريجنالد : (يصفعه على وجهه) أيها الجاهل بأمور دينك .. تسخر منا وأنت تحت رحمتنا ؟ ! ..

بطرس : (فى نبرات تشى بالثورة التى تعتمل فى صدره) .. قبل مجىء حملتكم السابقة ، كان أبى يمتلك مع رجل مسلم .. بيتا فى دمياط . لقد تقاسما العيش السعيد فيه .. ستة وثلاثين عاما .! أتعرفون ماذا حل بنا عندما جئتم ؟ ! .. أحرقتم بيتنا .. (يشير إلى أثر الجرح الملتئم الغائر فوق عينه اليسرى) .. ونالنى أنا هذا الجرح ... وحاول خمسة منكم اغتصاب أمى ، فماتت وهى تقاومهم .. وقتلتم أبى بضربة من قبضة سيف ، حطمت رأسه ، ونثرت مخه على وجهى ..

ريجنالد : (فى حنق) لا تحاول استدرار عطفنا أيها القاتل .. أين زميلك الذى كان معك فى البطيخة ؟ ! ..

بطرس : عندما تجدون ضحاياه ، تعرفون أين كان .. !

الملك : (فى إشفاق وتأنيب) لقد ملأ الظلام قلبك يا رجل .. إن الرب هو الذى أمرنا بأن نخلص الشرق ..

بطرس : (فى حدة وسرعة) تخلصونه من السلام والرخاء ! ! ..

ما دمتم جئتم محاربين ، فالمصريون كلهم أعداء لكم ، مهما اختلفت أديانهم ..

ريجنالد : (يضرب بطرس بقبضة يده فى صدره ، ويمسك بملابسه ، ويهزه فى عنف) قتلت ثمانية من خير فرسانى وأغرقت التاسع ، ثم تأتى لتتبجح علينا ؟ ! أين رفيقك الذى جاء معك ؟ ..

بطرس : (وهو ينظر الى ريجنالد ، وقد ملأته روح التحدى) لقد راهنته أن أقتل عشرة منكم .. ولو مت فى سبيل ذلك ..

ريجنالد : (وهو يهز بطرس فى عنف) سنعذبك حتى تتكلم ..

بطرس : (فى تحد صارخ) .. طباع البرابرة لا تتغير .. مغولا كانوا أم أوربيين .. !

ريجنالد : (وقد ازدادت ثورته على بطرس) سنقتلك قبل أن تفى رهانك .. !

بطرس : (صائحا والشرر يتطاير من عينيه) يامن تجهلون حقيقة المسيحية .. والمسيح .. أنا لم أخسر رهانا فى حياتى ...

(ينحنى فجأة ، ويسحب من رباط على ساقه كان يغطيه طرف ثوبه سكينا صغيرا . وفى مثل لمح البصر ، يطعن به ريجنالد ، فيسقط وهو يتحشرج)

ريجنالد : (وهو يموت) سنعذب ... نعـ ... ذ ... بك .

(يموت)

(ينفض آرتوا بسيفه ، ويطعن بطرس فى صدره . يصرخ . يدخل من الخارج بعض النبلاء والجنود ، وقد سمعوا صيحات المحتضرين ، كما تخرج الملكة وقطر الندى من خلف الساتر الذى يفصل قسمى الخيمة . تعرف قطر الندى بطرس ، فتند عنها صرخة جزع)

قطر الندى : (صارخة فى جزع) بطرس ؟

(يلتفت إليها بطرس ، وهو يقاوم حتى لا يسقط ، فيستند إلى ما حوله من أثاث)

بطرس : (متحشرجا ، إلى قطر الندى ، وقد التمعت عيناه انتصارا ، رغم ما يعلوه من ألم) . . ! واحد . . . قتل عشرة . . (يحوّل رأسه إلى الفرنج ، وضعف الموت يسرى فيه) وعشرة . . . يقتلون ألفا . . (يسقط على ركبتيه) . . وألف . يقتلون . . عشرة آلاف . .

(يسقط على الأرض ، فيتحامل على نفسه مستنداً إلى ذراعيه ، ويرفع رأسه ، ليسأل فى تحد وانتصار وألم) . . كم . . يبلغ . . عددكم . . ؟ إننا خمسة ملايين . . ! !

(يموت)

آرتوا : (بعد لحظة ، فى كآبة) . . مات البارون ريجنالد . . أصبح فرسان القديس يوحنا بغير قائد . . !

سارجين : . . ومات بسكين صغير . . . كالتى قتلت من قبل . . قائد الفرسان الهيكليين . . !

الملك : (وقد ملك زمام نفسه) . . ليدرك الله الجميـــــع برحمته . . .

(للجنود) احملوا جسد هذا المصرى ، والقوا به فى النهر ...
(لجوانفيل وآرتوا ومن دخل من النبلاء) ولنُقِم الآن قداسا مهيباً ياسادة .. لأجل روح فقيدنا . احملوا جثمانه إلى خيمة الصلاة... سألحق بكم فوراً ...

(يحمل الجنود جسدى بطرس وريجنالد ويخرجون ، يتبعهم آرتوا وسارجين والنبلاء)

الملك : (آمراً الحراس) أنزلوا أستار الخيمة . . !

(يُنزل جوزيف وريشار الأستار ، وقد عادا إلى مكانهما على جانبي مدخل الخيمة ، فتختفى بقايا البرج المحترق . لقد خرج الجميع عدا الملك والملكة ، وقطر الندى)

الملك : (حزينا) أين ثوب صلوات الجناز ؟

الملكة : (تنظر إلى قطر الندى ، الواقفة بعيداً على انفرادفى أسى) أحضريه يا قطر الندى . .

(تدخل قطر الندى إلى المخدع وهى حزينة ممتعضة)

الملك : (وهو يشيع قطرالندى بنظرة ملؤها الشك) إحذرى هذه الفتاة . . . لقد ملأت عينيها نظرة غريبة . . عندما أخذ المصرى يرسل تهديده وهو يموت ! . .

الملكة : إنها لا تنسى شعبها ... حاولت الهرب مرات . . .

الملك : (مستنكرا فى حيرة) كيف تحزن لموت رجل ليس من دينها ؟ ! . .

الملكة : إنه من وطنها .. وقتل عشرة منا !

الملك : (فى كآبة وأسف) . يا لضيعة جهادنا . . . ! مسيحى يقتل مسيحيين ، ويرفض حمايتنا ! . . .

(تأتى قطر الندى بثوب أبيض)

الملكة : (بقدر ما تستطيع من التظاهر بعدم الاكتراث) لعله كان فى حاجة إلى من يحميه منا نحن . . . لم نكن فى نظره . . إلا معتدين . . !

الملك : (فى دهشة واحتداد ، وهو يضع الثوب على كتفيه) وهل كنا نتركه يخطف أرواح المزيد من رجالنا ؟ ! . .

الملكة : (كأنها مغلوبة على أمرها) لا . . لم يعتد الملوك أن يتركوا الحياة . . من يدرك حقيقتهم ... ألسنا حقيقة معتدين ؟

الملك : (فى ضيق وشىء من غضب) هذا كلام لا يقال ، ووصيفتك المصرية واقفة تسمعك !

الملكة : (ولهجتها تفيض بما يفصح عما يملأ نفسها من ثورة ، مشيرة إلى قطر الندى) وهذه أيضا كانت آمنة ، تحلم بأن تُزَفَّ إلى خطيب تحبه . . فحطمنا لها الحب والمستقبل . . . أتعلم أنها سألتنى عن سبب واحد يبرر تحطيمنا كل ما كان لها . . فلم أجد جوابا . . !

الملك : (فى حدة) هذا ما استفدته من تعليمها لغتنا . (صائحا ، كأنما وجد الجواب الحاسم على شك زوجته) . . إنهم مسلمون . . !

الملكة : لا فرق . . . أيديكم لم تفرغ بعد من دم مسيحى منهم . . !

إنهم ليسوا وحوشا .. ألا ترى قطر الندى .. لقد اكتشفت فيها أطهر وأنبل إنسان .. !

الملك : (غاضبا) لقد فقدتِ إيمانك بكل مقدس جئنا لأجله ..

الملكة : (متنهدة) بل أرجو أن ينتهى كل شيء فى سرعة ... لقد نذرت نذرا .. أوفيه عند عبورنا هذا النهر ..

الملك : .. (محتدا) كثيرا ما قلت إنك فى حاجة إلى دروس عديدة من أمى ، حتى تثبتى على عقيدتك .. أنت تعرضين نفسك لغضب السماء .. !

(يخرج غاضبا)

الملكة : (يائسة ، لقطر الندى) يبدو أننى آلمت جلالته ..

قطر الندى : لو عرف حقيقتنا .. كما عرفتِها جلالتك ، لما انتابه هذا الغضب...

الملكة : (متنهدة) لو عرف كل شعب حقيقة الشعوب الأخرى ، لتجنبنا كثيرا من أسباب هذه الحروب .. (نادمة) لقد خدشتُ ما يعتبره جلالته .. معتقدات .. لا يجوز المساس بها .. !

قطر الندى : ليس فى خيال رجالكم .. إلا صور مليئة بالرغبة فى الاعتداء .. !

الملكة : يخشون أى بصيص من ضوء .. يسقط على رسب فى عقولهم من تعصب . يخشون أن يكتشفوا عبث التضحيات

التى يُقْـدمون عليها .. !

قطر الندى : .. لماذا لا تقولين هذا لجلالته ؟

الملكة : لقد رأيتِ كيف أغْـضَبَـتْه كلمات قليلة .. إن جلالته فى حاجة إلى معونتى ، كى يسيطر على هذه الآلاف السريعة التقلب التى جاءت معنـا .. (بعد لحظه ..) سـأذهب لحضور الصلاة معه ..

(تتجه نحو مدخل الخيمة ، تقف ، تحول رأسها إلى قطر الندى قائلة)

يمكنك أداء صلاتكم هنا .. لـكن احذرى أن يراكِ أحد ..

(تخرج الملـكة ، فيأتى من القسم الذى به الفراش صوت ينادى)

صوت : (مناديا) .. قطر الندى ..

(تحول قطر الندى رأسها مصغية)

الصوت : (منادياً ثانية) يا قطر الندى ..

قطر الندى : (فى فزع) من هذا .. ؟ من ينادينى .. ؟!

(يخرج بدر الدين من قسم الخيمة الذى به الفراش ، وهو يرتدى ملابس الصليبيين ، ويحمل ربطة ملابس فى يده)

بدر : (وهو يتلفت حوله حذرا) .. أنا يا قطر الندى ..

قطر الندى : (وقد تسمَّرت فى مكانها دهشة لا تصدق) بدر الدين .. ! !

بدر : (فى بهجة غامرة يلجمها حذره) .. أخيرا التقينا ..

قطر الندى : (وهى تندفع نحوه ، وتتطلع إليه فى فرحة غامرة) بدر الدين

.. لا . أكاد أصدق ! .. (تشير الى الملابس التى يرتديها)
ما هذه الملابس التى ترتديها ؟! من أين حصلت عليها ؟

بدر : نزعناها عن صليبي ، خطفناه تحت الماء هذا الصباح !

قطر الندى : (مبتسمة) وأنت تلبس البطيخة ! ..

بدر : وبعدها اختفيت فوق شجرة الجميز خلف الخيمة . ولما وجدت المكان خاليا ، تسللت زاحفا . . (يشير الى قسم الفراش) فوجدت نفسي تحت فراش !

قطر الندى : كنت أثق دائما أنك ستأتى .. كم اشتقت اليكم جميعا ..

بدر : وكم عذبنى القلق على مصيرك .. حتى أبلغنا أسير أنك هنا..

قطر الندى : حمتنى ملكتهم منذ اللحظة الأولى من وحوشهم ، وبعدها حاولت الهرب مرات ، فتعرضت للموت بسهامهم ... أى أم بشع فظيع ، يعانيه من رأيتهم من صرعى السهام !

بدر : جئت اليوم ، لأهيىء لك طريقا آمنا للهرب ..

قطر الندى : (فى فرح وانفعال) صحيح ؟ .. أسرع ... أخبرنى كيف ..؟!

بدر : (يتلفت حوله حذراً ، ويمد يده إليها بالربطة التى معه) خذى هذه اللفافة .. بها ملابس صليبى آخر .. إلبسيها لتتخفى فيها .. يجب أن تكونى على استعداد عند منتصف الليل ..

قطر الندى : (فى جزع) وستبقى أنت فى هذا المعسكر حتى منتصف الليل ؟ ! .. لقد قتلوا هنا منذ قليل .. (تتردد .. تعلوها

الكآبة ..) قتلوا .. (تسكت) ..

بدر : (سائلا فى جزع) مصريا ؟ !

قطر الندى : (فى كآبة) .. صديقك .. بطرس .. !

بدر : (جزعا ، وقد فوجىء) .. قتلوه ؟ !!

قطر الندى : لم تذهب حياته عبثا ... كان عاشر ضحاياه .. كبيرا من فرسانهم نجمهم فيه ..

بدر : (بحزن) لقد أوفى رهانه!..كان من أشجع أبطالنا .. تطوع بصاحبتى اليوم بغير تردد ..

قطر الندى : يبدو أن عمتى .. كفت عن نصحك بالبعد عن المخاطر !

بدر : لقد خلق اكتشاف سلاح النار ، أساطير .. وضعت على كاهلى مسئولية تنظيم المقاومة الشعبية فى المنصورة ، فوجدت أمى نفسها وسط دوامة من العمل فى بيتنا هناك .. وقد أصبح ملتقى القادة والمتطوعين .. من الفرسان وأبناء البلد ..

قطر الندى : ولماذا لا تعجلون القيام بهجوم ، تضمون به نهاية لعدوان الفرنج؟! .. أزف الوقت لتلطخوا بالطين شمارزهرة الزنبق ، الذى يختال به ملك فرنسا وإخوته الثلاثة ..(تشير إلى الشعار فى صدر الخيمة)

بدر : إننا ندرب جموع المتطوعين، القادمين من الصعيد والقاهرة .. من الدلتا وكل بلاد العرب ... وقد تم الليلة تنفيذ خطة ،

نأمر بها كل سفينة تأتى إلى الفرنج من دمياط أو تبحر إليها .. سنمنع عنهم أية إمدادات من زاد أو رجال، فنضطرهم إلى الانسحاب .. ثم نفنيهم فى الطريق ..

قطر الندى : وهل ستتركنى أموت معهم من الجوع هنا ؟ !

بدر : (يشير إلى ربطة الملابس ، وقد تناولتها منه) بل سأجدك عند منتصف هذه الليلة ، متخفية فى هذه الملابس .. بين شجرة الجميز وظهر الخيمة . سيكون هناك قارب خفيف معدٌّ فى ذلك الوقت .. لحملنا إلى المنصورة ..

(يُسمع صوت الملكة من الخارج)

الملكة : (من الخارج) هل عاد جلالته ؟

جوزيف : (من الخارج) كلا يا مولاتى !

قطر الندى : (فى اضطراب ، وهى تدفع بدر الدين إلى خلف ساتر قسم الفراش) اسرع ... اختبىء ... اختف حيث كنت ...

(يختفى بدر الدين خلف الساتر . يزيح جوزيف أستار مدخل الخيمة ، فتدخل الملكة ، ثم تُسدل الأستار)

الملكة : (لقطر الندى) شُغِلوا عن صلاة الجناز ... وصلت إليهم أخبار هامة ، أنستهم كل ما عداها ...

قطر الندى : (متلعثمة مضطربة) هل وصلت أخشاب ... لمعاودة بناء الأبراج ... ؟

الملكة : جاء إليهم رسول ، ملأت أخباره القواد بالفرحة ... لقد شملهم

جميعا حماس ذريب ...

(تسمع أبواق تتردد من كل مكان ، وأصوات أقدام جنود يهرولون ، وخيل تجرى . يرفع جوزيف وريشار أستار الخيمة ، فيدخل الملك وقد أضاء الفرح وجهه)

الملك : (للملكة ، كأنما يضحك) أبشرى يازوجتنا العزيزة ، حتى يثبت إيمانك ... فداوى من الحشاشين دلنا على مكان ضحل بالنهر .. عند قرية سلمون .. ! مخاضة نستطيع العبور منها ، وتقع على مسيرة ساعة من هنا ...

الملكة : (وقد سرت إليها فرحة زوجها) ستعبرون هذا النهر أخيرا ؟ !

الملك : (فى تأكيد ، وبنفس البشر) الليلة ... وخلال أسبوع أو اثنين .. ترفرف شارة زهرة الزنبق عالية على أبراج قلعة القاهرة ..

(ترتعد قطر الندى خلفهم ، وقد باغتها الخبر)

الملكة : وستقومون الليلة أيضا بهجومكم ؟

الملك : لا يستطيع أحد الانتظار .. سيتم أخى آرتوا العبور بعد منتصف الليل ، على رأس الفريق الأول من فرساننا . . واتفقنا أن ينتظرنى فى سكون .. حتى أتم العبور على رأس الفريق الأخير ، قبيل الفجر .. !

الملكة : (وكأنما انزاح عنها حمل ثقيل) ونترك هذا المكان البغيض !

الملك : سيبقى دوق برجنديا هنا ، ليقود المشاة ورماة السهام . عندما نشتت فى الفجر شمل المصريين ، ونزيحهم عن تل جديلة الذى

أقلقونا منه . . سينقطع عنا التهديد . . فيكمل مشاتنا إقامة الجسر ويعبرون عليه ، لنلتقى بهم فى المنصورة ...

(يدخل الكاردينال روبرت)

الكاردينال : (فى بهجة) ليبارككم الرب أيها الملك المقدس ..

الملك : هل سمعت الأخبار الطيبة أيها الأب الكاردينال ! ؟ .. سنقيم غدا صلوات الشكر .. فى المنصورة نفسها .. !

الكاردينال : .. وبعد أيام ، نقيمها فى حصن بابليون .. فى قلب القاهرة ..!

الملك : (للملكة) لعله من المناسب يا زوجتنا العزيزة ، ألا تعبرى عندما يقيمون الجسر .. يحسن أن تعودى إلى دمياط عندما نحتل المنصورة ، فلن نستقر بعدئذ فى مكان . .

الملكة : تحرمنى من التمتع معكم بلذة النصر ، بعد أن ذقت مرارة هذا الانتظار الطويل ؟ ! . .

الملك : سنرسل فى استدعائك لحضور حفلات احتلالنا حصن بابليون بالقاهرة ، وتأهبنا لغزو الشام .. سأعود لوداعك بعد أن نحتل المنصورة ...

(يخرج الملك مع الكاردينال . تقف الملكة ساهمة مفكرة . تتقدم قطر الندى من خلفها ..)

قطر الندى : (متلعثمة .. فى سرعة واضطراب) سيدتى الملكة . .

الملكة : (تلتفت إليها متسائلة .. ساهمة ...) ..

قطر الندى : .. إن على جلالتك واجبا ... يجب أن تؤديه ...

الملكة : ماذا يا قطر الندى ؟

قطر الندى : أن تشعلى مائة شمعة فى كنيستكم .. !

الملكة : (تطيل النظر فى وجه قطر الندى ، وهى لاتستطيع تركيز ذهنها فيما سمعت . تقول ، وهى لاتزال سارحة مع خواطرها العنيفة ...)
أشكر لك تذكيرى.. إن زوجى فى حاجة إلى صلواتى خلال هذه اللحظات .. كما لم يكن فى حاجة إليها من قبل .. يجب أن أقدم الشكر لله .. أنْ وضع نهاية لمتاعبه ..

(تخرج الملكة . تسرع قطر الندى إلى الساتر الذى يفصل قسم الفراش عن بقية الخيمة ..)

قطر الندى : (منادية) .. بدر الدين ..

بدر : (وهو يبرز من خلف الساتر ، وينظر فى حذر) لمَ كانت هذه الضجة ؟ حُشِرَ رأسى بين الفراش والأرض ، فكادت روحى تزهق !..

قطر الندى : جاءهم خائن من جماعة الحشاشين .. دلهم على مخاضة فى بحر أشموم .. عند قرية سلمون .. !

بدر : (وقد فوجىء ...) سيعبرون إلينا ؟ !

قطر الندى : وأصدروا الأوامر للمشاة بإكمال الجسر ، عندما يزحزحون جيشنا عن التل الذى يرابط فوقه ...

بدر : الملاعين !

قطر الندى : وعند الفجر .. سيفاجئون معسكرنا .. فيأخذونه على غرة

.. . صحبهم الخائن الآن ، ليدلهم على المخاضة ..

بدر : هؤلاء الحشاشون الخونة . . كانوا عونا دائما لأعداء العرب . . وسلاحا ضـد كل محاولة لتوحيد القوى العربية .. سنقضى عليهم ، وعلى الفرنج الذين يساندونهم .. مهما طال بهم الزمن ..

قطر الندى : .. لا يمكن أن تضيع المنصورة .. كما ضاعت دمياط ..

بدر : (وأصوات الأبواق والجنود والخيل تتعالى فى الخارج) لقد أخذ المعسكر يموج بحركة عنيفة .. إنهم يتهيئون لعمل واسع النطاق .. سيؤخرنى هؤلاء الملاعين عن العودة ..

قطر الندى : تجنب أى اشتباك .. احرص على وصولك سالما ..

بدر : ومتى يبدأ عبورهم ؟

قطر الندى : سيتم أخو الملك اجتياز المخاضة بعد منتصف الليل .. لـكن الهجوم لن يبدأ قبل الفجر ، عندما يكتمل عبور فرسانهم ..

بدر : (متسائلا ، وقد تذكر ماجاء من أجله) .. وقاربنا الصغير .. !؟

قطر الندى : لا وقت لهذا .. إنهم يتهيئون لالتهام مصر .. بشهية .. يثيرها جوع طويل ..

بدر : وهل ستعبرين معهم ؟

قطر الندى : بل سأعود مع الملكة إلى دمياط .. إذا .. إذا احتلوا المنصورة ..

بدر : إذن لن تعودى أبدا معهم إلى دمياط .. (فى تصميم)

قطر الندى .. يجب أن تأتى معى الليلة ..

قطر الندى : سأكون عبئاً عليك .. القارب لن يُعَـدّ قبل منتصف الليل .. وأنت تستطيع العودة وحدك قبل ذلك سباحة . .

بدر : هذه فرصتكِ للخلاص !. يجب ألا أتركك ، وقد تهيأ سبيل لنجاتك ! .

قطر الندى : إننى خائفة يابدر الدين .. أول فريق من فرسانهم ، قد يتم عبوره قبل أن يأتى القارب الذى ننتظره ... ستضيع المنصورة لو تأخرتَ ، فلا يجتمع لنا شمل مرة ثانية ..

بدر : .. أريد كلا كليكما .. أنت والمنصورة ..!

قطر الندى : (فى أسى . .) بل أنا « أو » المنصورة . . اختيار لا حيلة لنا فيه . . !

بدر : سيفرّق المتدون بيننا ثانية !..

قطر الندى : سأظل أحاول الهرب حتى أنجو !..

(يصمت بدر الدين ، تتنازعه الحيرة والقلق . تتساءل قطر الندى وهى تعانى معه قلقه وتردده ...)

.. بدر الدين ..

(يرفع رأسه متسائلا ، والقلق والضيق يغمران وجهه ..)

بدر : ماذا يا قطر الندى ؟!

قطر الندى : (فى كآبة ..) لا تفكر فى الليلة ...

بدر : (فى صوت مشحون بالألم..) قد يكون فراقنا الليلة .. بغير لقـاء ..

قطر الندى : (وقد أخذ البكاء يخنق صوتها) بدر الدين . . لا تجعلنى أضعف ...(تدفعه برفق نحو المخدع ..) عد إلى معسكرنا حالا تجد الطريق خاليا .. اذهب قبل أن أتخاذل ...

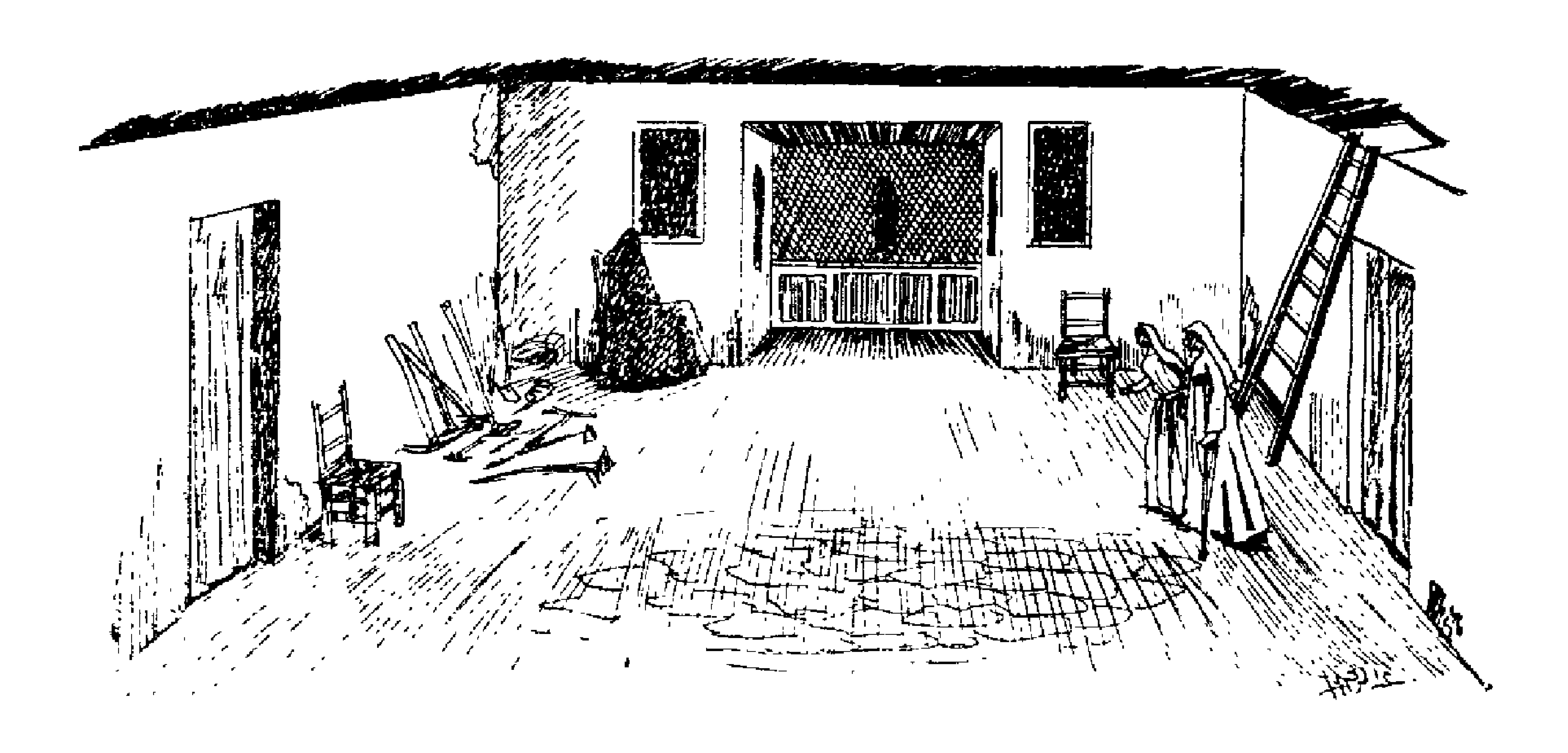
(يتجه بدر الدين فى خطوات مترددة نحو الساتر الذى يفصل قسم الفراش عن بقية الخيمة .. ثم يقف عند الساتر ، ويحوّل رأسه إلى قطر الندى ..)

قطر الندى : .. لا .. لا تبحث عن كلمة وداع .. دعنى أنظر إليك لحظة .. ثم اذهب .. اذهب واحرص على حياتك .. أنت أمل مصر اليوم ...

بدر : (مودعا مشجعا) قطر الندى .. اطمئنى ... (فى تصميم) لن تضيع المنصورة .. وستحمى المنصورة مصر !..

(يختفى بدر الدين)

ينزل الستار



المنظر الثانى

(المنصـورة . قبل شروق
فجر يوم الثلاثاء ، الثامن من فبراير
عام ١٢٥٠)

(أكبر الحجرات العلوية بالدار التى اتخذها بدر الدين وأسرته مقرا لهم ، والتى تقع فى أحد أزقة المنصورة الضيقة .

فى الصدر نافذتان ، مصنوعتان من أخشاب متقاطعة بينها فتحات ضيقة ، يمكن أن يلوح منها ما قد يبدّد الظلمة فى الخارج من أضواء .

بين النافذتين مشربية تطل على الطريق ، تبدأ من مستوى أرضية الحجرة ، وترتفع إلى ما يتجاوز قامة الإنسان ، ويستطيع الواقف فيها مراقبة الطريق كله عن يمين ويسار .

إذا فُتحت النوافذ ــ بما فيهـا نوافـذ المشربية ــ عندما تلوح أضواء الفجر ، نستطيع أن نرى نوافذ ومشربيات الحجرات العلوية من المنازل المقابلة ، وأسطح تلك المنازل إذا لم تكن بها حجرات علوية .

على اليمين باب يؤدى إلى حجرة فاطمة وبدرية ، وبجواره سلم خشبى متنقل مستند إلى الجدار ، ينتهى إلى فتحة فى السقف ، تؤدى إلى سطح الدار .

على اليسار باب يُفتح على السلم المؤدى إلى فناء المنزل .

الأثاث من خشب بسيط .
مجموعات من القسي والرماح والقئوس في أركان الحجرة.
عندما يرتفع الستار ، نرى رجلا حبشياً ضخم الجثة ، قد اشتمل بعباءة فضفاضة ، أخفت ملابسه وعنقه ورأسه ، فلا يظهر سوى وجهه ، وقد جلس على مقعد بجوار نافذة اليسار ، مسندا رأسه إلى الحائط كأنه نائم . وهو من مكانه هذا ، يستطيع أن يرى أول الزقاق أسفل المنزل من فتحات أخشاب النافذة .

تخرج فاطمة من باب اليمين ، وبدرية خلفها . تقف بدرية عند الباب تتبادل مع أمها نظرات متسائلة . تدفع بدرية أمها إلى الأمام تشجعها على الاقتراب من الرجل النائم . تتجه فاطمة نحوه مترددة ، وهي تستند إلى عكازها ...)

فاطمة : (وهي تهز الرجل بطرف يدها) يا عم .. !

الرجل : (كأنما أيقظته من غفوة) .. هيه ..؟!

فاطمة : لقد تجاوزنا منتصف الليل ...

الرجل : (ولم يفق تماما من غفوته) يجب أن أرى السيد بدر الدين ..

فاطمة : المتطوعون يستريحون تحت.. يمكن أن تجد لك مكانا بينهم ..
إنك تنام وأنت جالس على هذا المقعد الخشبي ...!

الرجل : (سائلا) أين ذهب بدر الدين ؟

فاطمة : (تتبادل النظرات مع ابنتها ، لاتدرى بماذا تجيب ، فهي نفسها قلقة لتأخر ابنها) .. لم يعد بعد...

الرجل : إننى هنا منذ العصر ...

فاطمة : (فى صوت يشى بالغضب) اقترحت عليك أن تنضم إلى جماعة مقدم الجند خالد بن شرابة ، إذا كنت تبغى التدرُّب على السلاح ، فأصررت أن تقبع فى هذا الركن صامتا ! .. أما يكفينى قلقى لتأخر بدر الدين ، فتشغلنى أنت بكتمانك ما تريد منه ؟ ! ..

الرجل : (يُبرز من تحت عباءته قوسا كبيرا) أترين هذا يا خالة ؟ ! ..

فاطمة : (تصمت لحظة تردِّد فيها بصرها بين القوس وصاحبه ـ تستجمع خواطرها ، ثم تجيب ..) إذا كنت تجيد الرمى عن هذا القوس العظيم ، فيجب أن نعهد إليك بجماعة كبيرة ممن يفدون كل يوم . . ! كلهم يريدون حمل السلاح ... لقِّن بعضهم أصول هذا الفن .

الرجل : (ملاطفا ..) إنك أم جديرة حقاً ببدر الدين ياخالة . . .

فاطمة : (مكملة ..) . . أكثر من خمسة أعراب من اليمن والشام ، يستريحون فى حجرات الدور الأرضى . إنهم ينتظرون فارغى الصبر ، أن نعهد بهم إلى مثلك . . لتدريبهم على استعمال السلاح . . . يمكنك أن تنزل الآن ، لتتعرف إليهم فى الصباح . . فهم منذ الساعة رجالك ... !

الرجل : (فى صبر ولطف) هل يقلقكِ وجودى هنا إلى هذا الحد

يا خالة ؟ . . . هل ذهب بدر الدين إلى بحر المحلة ، للإشراف على تركيب السفن . . التى أتت بها الجمال مفككة من القاهرة ، طبقا لمشورة المعظم توران شاه ؟! . . .

فاطمة : (تصدر عنها هى وبدرية فى نفس الوقت صيحة دهشة ، وهما تتبادلان النظرات . . .) . .

الرجل : أنت ترين ياخالة .. أننى أعرف أكبر أسرار ابنك . . !

فاطمة : (متسائلة) إن هذه الخطة سر . . بعث به ابن سلطاننا من حصن كيفا بالعراق ؛ سر لا يعرفه إلا من يعملون فيه ! . . وأنت لم تطأ أرض المنصورة ، إلا اليوم ؟ !

الرجل : إننى قادم من حصن كيفا نفسه ياخالة . . . !

فاطمة : (وقد فوجئت . . .) أنت رسول من ابن سلطاننا . . ؟!

الرجل : (محذرا) لنترك الحديث فى هذا الأمر الآن يا خالة ! . .

(يجذب انتباهه شىء ما أسفل الزقاق ، وقد لاح بصيص نور من فتحات النوافذ ـ يقف فجأة ، ويخفى قوسه تحت ثوبه كما كان . يتخلى عن لهجته التى كان يحاول بها تهدئة فاطمة ، ويتجه نحو المشربية ليراقب الطريق . يقول وهو يشير إلى أسفل الزقاق)

من هؤلاء الثلاثة القادمون فى أول الزقاق يا خالة ؟

فاطمة : (وهى تنظر من فتحات النافذة) . . رغم المشعل الذى معهم ، فلا أرى إلا العباءات تخفى وجوههم . . . (وهى تراقب

الطريق ، وقد ساد الظلام خارج النافذة) لقد أطفئوا مشعلهم به

الرجل : (مصغيا إلى صرير باب ثقيل يُفتح) هل هذا صوت بابكم ؟ . . إنه يقع أسفل هذه المشربية ؟

فاطمة : (تسرع إلى الباب الأيسر المؤدى إلى السلم . تسمع أصوات أقدام تصعد السلم الحجرى، فتسأل منادية) من القادم ؟ . . .

(يدخل ثلاثة أخفوا وجوههم بعباءاتهم . يقفون ليديروا عيونهم فى المكان إلى أن يستقر نظرهم على الحبشى . يحاول إحكام إخفاء وجهه ، فيصيح به أحدهم)

أول الملثمين : الطواشى صبيح ! ؟ . .

صبيح : (فى جفاء ..) ماذا تريدون ؟

(يزيل الثلاثة عباءاتهم ، فإذا أوسطهم امرأة رائعة الجمال ، تبدو على وجهها كل دلائل القوة والإرادة والذكاء . إنها شجرة الدر ، ومعها بيبرس البندقدارى مقدّم المماليك ، والطواشى جمال الدين محسن الصالحى، الذى كان أقرب الناس إلى السلطان نجم الدين ، زوج شجرة الدر)

صبيح : (صائحا فى دهشة . .) مولاتنا السلطانة ؟ ! . . .

شجرة الدر : أنا هى .. شجرة الدر أم خليل ، التى تجاوزْتَها ، وجئتَ تطلب حاجتك من منزل بدر الدين . . !

صبيح : (فى لهجة يُفهم منها أنه لا يرغب فى التحدث أمام بيبرس الذى لا يعرفه) كنت أبغى أن يعهد لى بدر الدين . . مقابلة ، لا يعلم بها إلا عصمتك ، ونائب السلطان جمال الدين . . . (يشير إليه)

جمال الدين : (وقد فهم معنى نظرة الشك التى وجهها صبيح الحبشى الى بيبرس)
وليس معنا سوى المقدم بيبرس البندقدارى ، قائد المماليك
فى المنصورة (يشير اليه) . . إنه كتوم . . يحفظ السر . .

صبيح : (ملتفتا إلى فاطمة وقد انتحت جانبا ، بما يعنى أنه لا يريد التحدث
أمامها . يسأل جمال الدين مشيرا الى بيبرس) وهل يعلم بما أبلغه
إلينا الرسل؟

شجرة الدر : (ملتفتة إلى فاطمة) اسمحى لنا يا خالة .. بيننا حديث خاص ..!

(تدخل فاطمة وبدرية حجرة اليمين . تلتفت شجرة الدر إلى
صبيح ، ثم تقول وهى تشير الى بيبرس)

إنه الذى تولى نقـل جثمان السلطان ، رحمه الله ، إلى قلعـة
الروضة بالقاهرة . . دون أن يدرى أحد . . . (تسأل . .)
هل وصل سيدك توران شاه . . (و تأكيد لتزيل مخاوفه) . .
سلطان مصر المقبل ؟ ! ...

صبيح : إن إخفاء خبر موت زوجك السلطان حتى اليوم ... وتسليم
كل أمور مصر . . إلى الأمير ابن شيخ الشيوخ ... أثار
كثيرا من التساؤل فى نفس سيدى ... !

شجرة الدر : (فى شبه غضب . محتدة) هل كنت تريد ، أنت وسيدك ،
أن نعلن خبر وفاة السلطان ، فنهزم نفوس شعبنا .. وأفراده
يجتازون أدق مراحل تاريخهم ؟ ! ... إن العـــدو يطرق

أبواب مصر ، بل أبواب الشرق ، طرقا عنيفا ... والمماليك الأكراد ، الذين أبعدهم السلطان والد سيدك ، ينتظرون لحظة يثبون فيها إلى الحكم ... (بعد لحظة . .) لقد حفظنا المُلك لكم .. وأرسلت أستدعي سيدك ، رغم أنه ليس ابني .. ونفذنا نصائحه قبل أن يتحرك من حصن كيفا ؛ إن السفن علاً الآن بحر المحلة — خلف معسكر الفرنج — كما أشار .! مِمَّن تخشون ؟ ... !

صبيح : ... (يسكت) . . .

بيبرس : (في إقناع) لقد جمعَت سيدتنا الأمراء والأجناد ، وقالت لهم إن السلطان مريض لا يقابل أحدا ، وإنه يأمركم بالحلف له ، ومن بعده لابنه المعظم توران شاه ، فحلفوا جميعا ...

جمال الدين : (في لهجة تقارب لهجة شجرة الدر وتغاير أسلوب بيبرس الذى كان هادئا) .. إن وحدة الصف كانت رائدنا ، في هذه اللحظات الخطيرة من حياتنا ... ومع ذلك تتركنا أنت ، وتأتي لتجلس هنا منذ العصر .. !

صبيح : إن الأخبار تنتشر سريعا في هذا البلد الحصين . . ! عرفت أن بدر الدين يتزعم العامة والمتطوِّعين ، وأنه ينظم معكم أمور الدفاع عن المنصورة ، فأردت مقابلته .. حتى أعرف الأرض التي سيقف عليها سيدي قبل أن يأتي . . وإلا . . لنصحته

بعدم المجيء ... !

شجرة الدر : (وقد لاحظت ما تحفل به الجملة الأخيرة من معانى) لسنا على استعداد للدخول فى خلافات ،وليس بيننا وبين الفرنج .. سوى بحر أشموم !.. إنهم لوعبروا هذا النهر ، فسيكونون هنا خلال ساعة... لقد استدعيت سيدك لتولى السلطنة ، حتى تجتمع قلوب الناس حول قيادة موحدة ، تبث فيهم الثقة بالنصر ... ارجع لسيدك ودعه يعجل ، فكل شيء مهيأ لاستقباله ...

(تسمع فى الطريق أصوات أقدام . تضاء نوافذ المنازل المقابلة ، فيظهر نورها من فتحات النوافذ والمشربية فى صدر المسرح ، ثم يسمع صرير باب المنزل يفتح .. إن هدوء البلدة الذى فرضه الليل ، يزول . يسمع صوت بدر الدين)

بدر : (وهو يصعد السلم ، مناديا فى لهفة وعصبية قبل أن يدخل) .. أمى .. امى ..

(تخرج فاطمة وبدرية من باب اليمين ، ويدخل بدر الدين من باب اليسار ، وقد بان عليه الإجهاد ، وتعفرت ملابسه وتلوثت بالطين ، يلهث كأنما كان يجرى . يفاجأ بالموجودين . يتطلع اليهم لحظة .. يعرفهم . يهتف وقد فوجيء)

مولاتنا شجرة الدر .. ! لا تؤاخذى ما أنا عليه من حال .. ! (الى بيبرس فى اندفاع عنيف) يا قائد بيبرس . . بحثنا عنك طويلا فلم نجدك .. أسرع إلى فرسانك ...

جمال الدين : ماذا جرى .. ؟!

بدر : فاجأ الفرنج جنودنا على تل جديلة ... وقتل الأمير ابن شيخ الشيوخ ..!

الجميع : (فى أصوات فزعة ..) قتل ؟ !.. الأمير ابن شيخ الشيوخ ؟!. كيف حدث هذا ؟! ...

بدر : عبر الفرنج مخاضة عند قرية سلمون ... علمت الخطة من معسكرهم... رقابة حرّاسهم أضاعت منى وقتاً ثميناً ... اتفق قادتهم ألا يبدأ هجومهم إلا مع الفجر ، لكننى عندما بلغت معسكرنا منذ ساعة ، وجدت العدو يقتحمه وجنودنا نيام ...

جمال : هجموا قبل موعدهم بثلاث ساعات ..!! ياللكارثة ! ..

بدر : خالف أخو ملك الفرنسيس ، ما اتفق عليه مع بقية فرسان الفرنج . إن بقية جيش العدو لم تعبر بعد ! ...

شجرة الدر : (فى لهفة واضطراب) وما الذى دفعهم إلى هذا الهجوم المبكر؟! قد تكون هناك خدعة ... !

بدر : قابلت فارسا من رجالنا .. أخبرنى أنه كان عائدا مع فريق من الفرسان ؛ وعند شاطىء قرية سلمون ، اكتشفوا تجمعات مَن عبر مِن فرسان الفرنج ، وقد كنوا انتظارا لعبور بقيتهم ... وكان فرساننا قلة ، فانطلق أخو ملك الفرنسيس

خلفهم وفاجأ معسكرنا . . لولا هذا ... لكنت قد أنذرت جنودنا ، ولما تمكن الفرنج منهم . . .

بيبرس : (وهو يتجه نحو باب اليسار) سأسرع بفرسانى ... لا بد من نجدة لمن فوجئوا على تل جديلة . .

بدر : (صائحا . .) انتظر يامقدم بيبرس ... إن نشوة النصر السهل ، قد تغرى أخا ملك الفرنسيس بدخول المنصورة ، وبابها الشرقىّ مفتوح . . لم ينته إصلاحه بعد ! . . يجب أن يبقى هنا من يدافع عن المدينة !

شجرةالدر : (فى حدة) ولم تفعل منذ اكتشفتَ الهجوم . . إلا أن جئت تبحث عن بيبرس . . !

بدر : لم أضع دقيقة واحدة عبثا ... تركت تل جديلة ، وأسرعت أنذر قادتنا وفرساننا ... لقد وضعنا خطة لمواجهة الموقف كله ؛ جيش المماليك بقيادة المقدم عز الدين أيبك ، يتجمع خارج المنصورة . . وأسرع الفارس أقطاى مع رجاله إلى المخاضة . . (لبيبرس) وطلبوا منى أن أبلغك يا مقدم بيبرس ، أن تتأهب مع جنودك فى ساحة القصر السلطانىّ ! . .

بيبرس : إن فرسانى يرابطون هناك . .

بدر : إذا لم يتمكن رجال أيبك من منـــع الفرنج من دخول المنصورة ، فإن الأعداء سيقصدون القصر أول ما يقصدون؛

ردُّوهم عنه إلى أزقة المنصورة يا قائد بيبرس ... لقد بعثت رجالى إلى كل منزل فى البلد . . ستصبح الدور كلها قلاعا خلال لحظات . .

شجرة الدر : .. وهل يعرف الأهالى ، كيف يقاتلون فرسان الفرنج ؟

بدر : متى تفرق الفرسان القادمون فى الأزقة ... سينهال عليهم الموت من كل نافذة ومن كل سطح . لقد أصبح كل أهل المنصورة ، ومن وفَـد عليها ، أسوداً كاسرة ... إنهم يترقبون هـذه الساعة ليأخذوا بثأر دمياط . . . ومَن يحاول من الأعداء الارتداد خارج البلدة ، سَـيُطْـبِق عليه رجال أبيك ، فلا يفلت منهم أحد ...

بيبرس : (لشجرة الدر) عودى إذن إلى قصرك يا مولاتنا ... سنكون حولك خلال لحظات . .

(يخرج من باب اليسار)

شجرة الدر : (لجمال الدين) .. هيا يا جمال الدين .. لقد فاجأتنا الأحداث...

بدر : (وشجرة الدر وجمال الدين يخرجان) ... وبعد قليل .. نفاجىء الفرنج نحن بالأحداث . . . !

(تخرج شجرة الدر مع جمال الدين)

فاطمة : (متسائلة فى قلق شديد) سيدخل الفرنج المنصورة ؟ ! ..

بدر : ليس الآن وقت القلق يا أمى .. أسرعى .. أحضرى حجر الرحى .. والهاوَن الثقيل . . ! (تخرج فاطمة من باب اليمين ؟

يلتفت إلى بدرية) وأنت يا بدرية .. انزلى إلى الفناء ...
أشعلى النار ، وضعى عليها كل ما لدينا من أوانى . . املئيها
بالماء والزيت ، واتركيها تغلى . .

بدرية : هل سنسلقهم أيضا ؟ !

بدر : دروعهم لا تحميهم من الزيت المغلى .. أسرعى . . انزلى ..
(تنزل بدرية من باب اليسار)

صبيح : ألا تريد أن تستفيد بى .. يا قائد ! ؟

بدر : أرى معك قوساً ... هل تجيد استخدامه ؟

صبيح : إننى رسول المعظم توران شاه .. صبيح المعظمى !

بدر : (فى حماس) لقد بعثك الله فى هذا اليوم العصيب .. مكانك إذن
بجوار هذه النافذة (يشير إلى نافذة اليسار) .. لترسل قوسك
سهام الموت ، إلى عنق كل فارس يلوح لك . .

فاطمة : (وهى تدخل من باب اليمين ، تحمل حجر رحى بيدها غير المشغولة
بالعكاز) سيحطم هذا الرحى أية خوذة يقع عليها . .

صبيح : (وهو يتناول منها الحجر ، ويضعه على الأرض أمام المشربية)
سيكسر ظهر من يصيبه .. أين الهاون ؟

فاطمة : (وهى تعود إلى الداخل) سأحضره ... لقد أصبح كل شىء
سلاحا !

بدر : (ينطلق إلى باب اليسار المؤدى إلى سلم الفناء . ينادى) يارجال..
يا أعراب اليمن والشام ...

صبيح : . . أى استقبال رائع سيجده سيدى ؛ الشعب مع الجيش ، والعرب كلهم مع مصر . .

بدر : (لصبيح) كل قوى الشرق قد عُبِّئت مع مصر .. (ينادى ثانية خلال باب اليسار) يا رجال .

(يدخل فى حماس ستة أعراب)

عربى أول : (وهو يدخل مع الآخرين) تبدّد سكون الليل . . وشُغل البلد بحركة عنيفة ... أقبلت اللحظات الحاسمة . .

بدر : (سائلا إياهم) هل بينكم من يجيد استعمال القوس والسهام؟

عربى ثان : أنا ... لقد كنت أصيب الهدف ، على مسافة خمسين قصبة . .

بدر : (مشيرا إلى نافذة اليمين) إذن تبقى بجوار هذه النافذة . . (يشير إلى قوس فى ركن الحجرة) هذه أقواس . . اختر لك واحدة منها .. (يلتفت إلى اثنين من الباقين) خذا أثاث البيت كله ... أنزلاه وكوّماه خلف باب الطريق فى الطابق الأرضى . حصّنا الباب ، حتى لا يستطيع إفرنجى يفرّ إلى زقاقنا أن يدخل البيت . .

أحد الرجلين : ولا نشترك فى المعركة ؟

بدرية : (وهى تدخل) الأوانى كلها فوق النار ..

بدر : (وهو يتناول رمحا من الأرض . يقول لبدرية) هاتى الساطور

يا بدرية .. (تدخل بدرية حجرة اليمين . يعطى بدر الرمح لأحد الرجلين) استعمل هذا الرمح إذا حاول عدو اقتحام الباب ...

بدرية : (تأتى بالساطور) وهذا ساطور اللحم والسمك . .

بدر : (لبدرية) انزلى راقبي النار ..(تنزل بدرية ، ويعطى بدرالساطور إلى العربى الثانى الذى كلفه بتحصين باب الطريق وهو يقول) وهــــذا الساطور .. يشج الرأس بضربة واحدة .. أسرعا . .

(يأخذ الرجلان فى حمل الأثاث ، ويخرجان به)

عربى ثالث : (وهو يتناول فأسا) سآخذ أنا هذه الفأس ...

بدر : (للثلاثة أعراب الباقين – وفيهم من تناول الفأس – وهو يشير إلى السلم المؤدى إلى السطح) بل اصعدوا إلى السطح بهذا السلم . . . انزعوا من سياجه الداخلى ما به من أحجار .. كوموها قرب الحافة المطلة على الزقاق . . أسقطوها على من يصل من فرسان العدو . . (يفتح نافذة ، ويصير إلى منزل مقابل، وقد أخذ الفجر يشرق ، فيبدد الظلام) .. انظروا . . إن جيراننا فى الناحية الأخرى من الزقاق ، يفعلون مثلنا . . اصعدوا . . .

(يأخذ الرجال الثلاثة فى تسلق السلم صاعدين إلى السطح واحداًوراء الآخر . يطل بدر من النافذة ، ويصيح بجيرانه المقابلين)

بدر : (مناديا من النافذة) يامعين . . هل حصنتم بابكم جيداً ؟!

معين : (من سطح المنزل المقابل) لن يفلت واحد من الأعداء . .

بدر : سنجعلها مذبحة . . أطفئوا الأنوار حالا تنتهون . . يجب ألا يتنبه الأعداء أننا فى انتظارهم . . يجب أن نأخذهم على غرة . . .

صوت أول : (ينادى من منزل آخر) كوّموا حجارة كثيرة . . .

صوت ثان : أغلقوا النوافذ . . .

صوت ثالث : أطفئوا الأنوار . . بدر الدين يقول « أطفئوا الأنوار . . » .

بدر : (يغلق النافذة ، ويذهب ليطل من الباب المؤدى إلى فناء المنزل ينادى . .) يا رجال . . .

عربى : (من أسفل) لن يدخل إنسان إلا على جسدينا . . .

صبيح : لن يفلت فارس أجنبى من هذه المصيدة ! (لبدر) تأكد بنفسك أن كل شىء على ما يرام .

(ينزل بدر الدين من باب اليسار المؤدى إلى الفناء)

بدرية : (تدخل وهى تحمل وعاءً كبيرا من أوعية الطبخ بين يديها . تقول وهى تهم بوضع الوعاء بجوار المشربية) سنقليهم فى الزيت المغلى . . ونتركهم وليمة مطهوة للغربان ! . .

صبيح : أدخلى الوعاء إلى الحجرة الداخلية . . . اقذفوا بالزيت من نوافذها . . حتى لا تعيقوا حركتنا ونحن نرمى السهام من هنا . .

(تدخل بدرية إلى حجرة اليمين ، وأثناء دخولها تخرج أمها تحمل الهاون)

بدر : (يدخل من باب اليسار يحمل وعاء كبيرا) أطفئوا الأنوار ... لقد سمعت أصواتا .. يبدو أن المعركة بدأت .. (يعطى الوعاء لبدرية التي أحضرت حجر الرحى الثانى . تأخذ الوعاء وتدخل إلى الحجرة الداخلية ، تتبعها والدتها . .)

(يطفئ بدر الدين السراج والشموع الكبيرة ، فيعتم المسرح إلا من شموع ضئيلة . ترتفع من الخارج ضجة، تتراى من مسافة ما)

بدر : (وهو يفتح النافذة ، وينادى الجيران) أطفئوا الأنوار .. لقد بدأت المعركة ...

(يدخل غرفة اليمين ، ويسمع صوته يردد نفس النداء من نافذتها)

أصوات أخرى : (تتجاوب من الأسطح والنوافذ) أطفئوا الأنوار ... أغلقوا النوافذ ...

(أصوات إغلاق النوافذ ـ يتراى نداء كأنه الأذان)

النداء : حيّ على الكفاح .. الله على الأعداء !..

صبيح : (فجأة ، وهو يراقب الطريق من النافذة) .. لقد بدءوا يدخلون الزقاق .. وقعوا فى المصيدة .. (يصيح) هذا أولهم .. (يشد قوسه .. يطلق سهما . تسمع صيحة ألم عالية فى الزقاق . يصيح فى انتصار . .) لقد أصبته .. انغرس السهم فى عنقه .. (تسمع صيحات ألم أخرى ، وصهيل خيل تجرى)

العربى : (الجالس يترقب فى النافذة الأخرى وقوسه فى يده) لقـد دخـل ثلاثة آخرون . . . إنهم يسقطون فى سرعة . . الجيران لا يتركون لنا من نقتله ! .. (يصيح وقد توتر صوته ، وهو يشد قوســه) آه .. هذا واحد سقط حصانه من تحته .. (يرمى السهم وهو يصيح به . .) إلى أين تذهب .. خذ ..

(ترتفع صيحة ألم عالية)

أصوات : (تترامى زعقات وصيحات منتصرة عالية من المنازل والأسطح والنوافذ المجاورة. . .) اقذف .. الق عليه ... صُبُّـوا المـاء المغلى .. (تسمع أصوات أحجار تسقط ، وأنات جرحى يتألمون، وخيل جريحة تصهل وأخرى تجرى)

بدرية : (تأتى من حجرة اليمين) لقد صَبَّ بدر الدين الزيت فوق رأس أحدهم ، فسقط يعوى كالـكلب المسعور ! ..

(تخرج من باب اليسار لتنزل إلى الفناء)

بدر : (فى حماس ، وقد أتى بعد أخته من الغرفة الداخلية . يتطلع إلى فتحة السطح .. ينادى) يارجال... اقذفوا الأحجار.. سددوا الرمى.. (يلتفت إلى صبيح) إن سهامك لا تخيب ... لا تترك منهم أحداً ! . .

(تسمع طرقات شديدة ، ثم خبط عنيف على باب البيت . يسرع بدر إلى المشربية ويلقى نظرة..)

بدر : (فى عصبية) يحاولون دخول البيت (يلتفت حوله فيرى حجر الرحى،

يحمله فى سرعة ، ويفتح نافذة المشربية ؛ يرفع الحجر عاليا فوق رأسه ، ثم يقذف به فى شدة إلى أسفل . تنطلق صرخة ، فيهتف)

لقد أصبته ! .

(يعود ويتناول حجر الرحى الآخر . يقذف به أيضاً هاتفاً)

خذ هذا أيضا . . . !

(يعود ليأخذ الهاون ، فيصيح به صبيح ، بعد أن أطل من المشربية)

صبيح : لقد كتمتَ أنفاسه .. لم يعد فى حاجة إلى هذا ! ..

(يشير إلى الهاون)

(تدخل بدرية بوعاء ماء مغلى آخر من باب اليسار ، وتخرج به من باب اليمين . تدوى طرقات ، فيندفع بدر الدين إلى باب اليسار المطل على الفناء ، ويصيح بالرجلين اللذين يحرسان الباب)

بدر : لا تدعا أحداً يدخل .. اقتلا من يحاول فتح الباب ...

(ثم يعبر الحجرة ليصيح من أسفل السلم المتنقل المؤدى إلى السطح)

الأحجار .. لا تكفوا عن قذف الأحجار ... (يأخذ قوساء ويتخذ مكانا عند نافذة اليسار بعد أن احتل صبيح المشربية . يأخذ بدر فى رمى السهام هو وصبيح والعربى ، وأصوات تتعالى فى الخارج)

الأصوات : اقتلوهم ... اذبحوا من لم يمت ..

(يكف الثلاثة عن قذف السهام ، ويفتحون النوافذ عن آخرها ، ويتطلعون إلى الطريق)

بدر : (هاتفا) أهل البلد يتدفقون إلى الزقاق ...

صبيح : (وقد تعالت هتافات من الطريق) ... ليتأكدوا أن الصرعى من الفرنج قدماتوا . .

(يقف الثلاثة لمشاهدة الناس فى الطريق ، وقد ارتفعت هتافاتهم . خلال حديثهم وانشغالهم بما يجرى فى الزقاق ، يظهر من باب اليسار ، أحد العربيين اللذين كانا يحرسان باب الطريق ، مخضّب بالدماء ، وفى صدره رمح . . يسقط ميتا دون أن ينتبه إليه مَن شغلتهم مشاهد النصر وهتافاته . . . يدخل خلف العربى فارس صليبى جريح ، على صدره شـارة زهرة الزنبق ؛ يستند إلى الجدران وسيفه فى يده . يرى نافذ السهام ، فيتقدم بجوار حائط اليسار ، لكنه لا يلبث أن يسقط على الأرض إعياء ، ومع ذلك يواصل تقدمه زاحفا ، متأهبا لطعن بدر الدين . تخرج فاطمة من باب اليمين ، فتراه ؛ تسرع نحوه ، وترفع عكازها بيديها ، وفى ضربة واحدة قوية تنهال به على رأسه)

فاطمة : (صارخة) ياملعون . .

(يصرخ الفارس صرخة واحدة ، ثم يسقط منكفئا على وجهه ، وتقع فاطمة جالسة على الأرض . يلتفت الثلاثة الواقفون بالنافذة مأخوذين . يسرع بدر الدين إلى والدته)

بدر : (صائحا فى جزع) أمى . . .!

فاطمة : كاد يقتلك ... الحمد لله .. ! (يعين بدر الدين أمه لتقف)

صبيح : (وهو يركل جسد الفارس فيقلبه على ظهره) لقد مات ...

بدر : (صائحاً ، وهو يحدّق فى صدر الفارس القتيل) شارة زهرة الزنبق !!
(فى فرح طاغ) أخو ملك فرنسا !.. (ينزع الشارة ، وينطلق بها إلى النافذة . يلوّح بالشارة إلى الجموع التى فى الطريق ، والتى لا نشاهدها لأن الحجرة فى الدور العلوى ، ولكننا نسمع هتافاتها . يصيح)
قتلنا قائد الأعداء . . ! قتلت أمى أخا ملك الفرنسيس .. !

هتاف : (يتعالى هتاف الجماهير) هيه . . هيه . .
(تتجاوب الزغاريد فى النوافذ ، ويُسمَع الناس ينادى بعضهم بعضا فى فرح وانتصار)

نداء : قتلوا قائد الفرنسيس . .

نداء آخر : أم بدر الدين ، قتلت أخا ملك الفرنسيس . .
(يتدافع الناس من باب اليسار فى ضجيج ، وينزل الأعراب الثلاثة الذين كانوا بالسطح . يسمع صوت ينادى)

الصوت : أفسحوا الطريق . . القائد بيبرس . . مقدم المماليك القائد بيبرس البندقدارى ...
(يدخل بيبرس مندفعاً فى حماس)

بيبرس : (لبدر ، فى بهجة وانتصار) لم ينج واحد ممن دخلوا البلد . . تمت الخطة كما قدرنا ...

بدر : (مشيرا إلى من تجمع فى الحجرة من أبناء الشعب) يحيا شعبنا الذى لا يُهزَم ...

بيبرس : حُصِرَ فرسان الفرنج بين رجالى فى الداخل ، ورجال أبيك

في الخارج .. فانهال عليهم الآلاف من أبطال الشعب ، بكل لون من ألوان الموت ، فسحقوهم ! . . أفنوهم !.. أفنوهم عن آخرهم . . . !

صبيح : (هاتفا فى بهجة) أفصح الشعب عن قوته الكامنة !..

بيبرس : (مكملا).. وأتتنا الأخبار بأن السفن التى نقلناها إلى بحر المحلة ، فاجأت سفن العدو القادمة من دمياط ، فأسرت ثمانين سفينة .. لن تصل الأعداء منذ اليوم أية إمدادات .. لازاد ولا رجال !!...

(يدخل فارس مصرى يلهث)

الفارس : سيدى بيبرس .. انتقمنا لما فعله الفرنج بمعسكرنا ..

بيبرس : (هاتفا) انتصارات فى كل ميدان ... (للرسول) ماذا فعلتم بهم ؟ !

الفارس : استقبلنا بقيتهم وهم يعبرون المخاضة .. قَتَلَت سهامنا من كان فى الماء منهم ، واشتبكنا مع من عبروا فى ملحمة هائلة ، حتى غطى صرعاهم وجه الأرض ، وصبغت دماؤهم سطح الماء..

بدر : هل بقى منهم من يقاوم ؟

الفارس : أرادوا الارتداد .. فَذُهِلوا عن الوضع الذى عبروا منه !.. لقد حطمنا مقدمة قواتهم ، حتى أرسل ملك الفرنسيس .. يطلب الهدنة ! ..

بدر : (هاتفا بمن احتشدوا فى الغرفة من أهل البلدة الأبطال)

لاهدنة حتى نستعيد كل ما أخذ .. ونكلفه غاليا ثمن كل شبر وطئه من أرضنا ..! هيا يارجال ..إلى خارج المنصورة .. لنكمل انتصـارنا . . لنطارد الفرنج ونمنع عنهم الراحة والقوت ... سنأسر سفنهم .. ونقتل رجالهم .. ونلقى بهم جميعاً إلى البحر من حيث قدموا ...وليكن قتالنا حتى النصر!..

(ترتفع هتافات أفراد الشعب وهم يتدفقون إلى الخارج)

يتزل الستار

الفصل الثالث

المنظر الأول

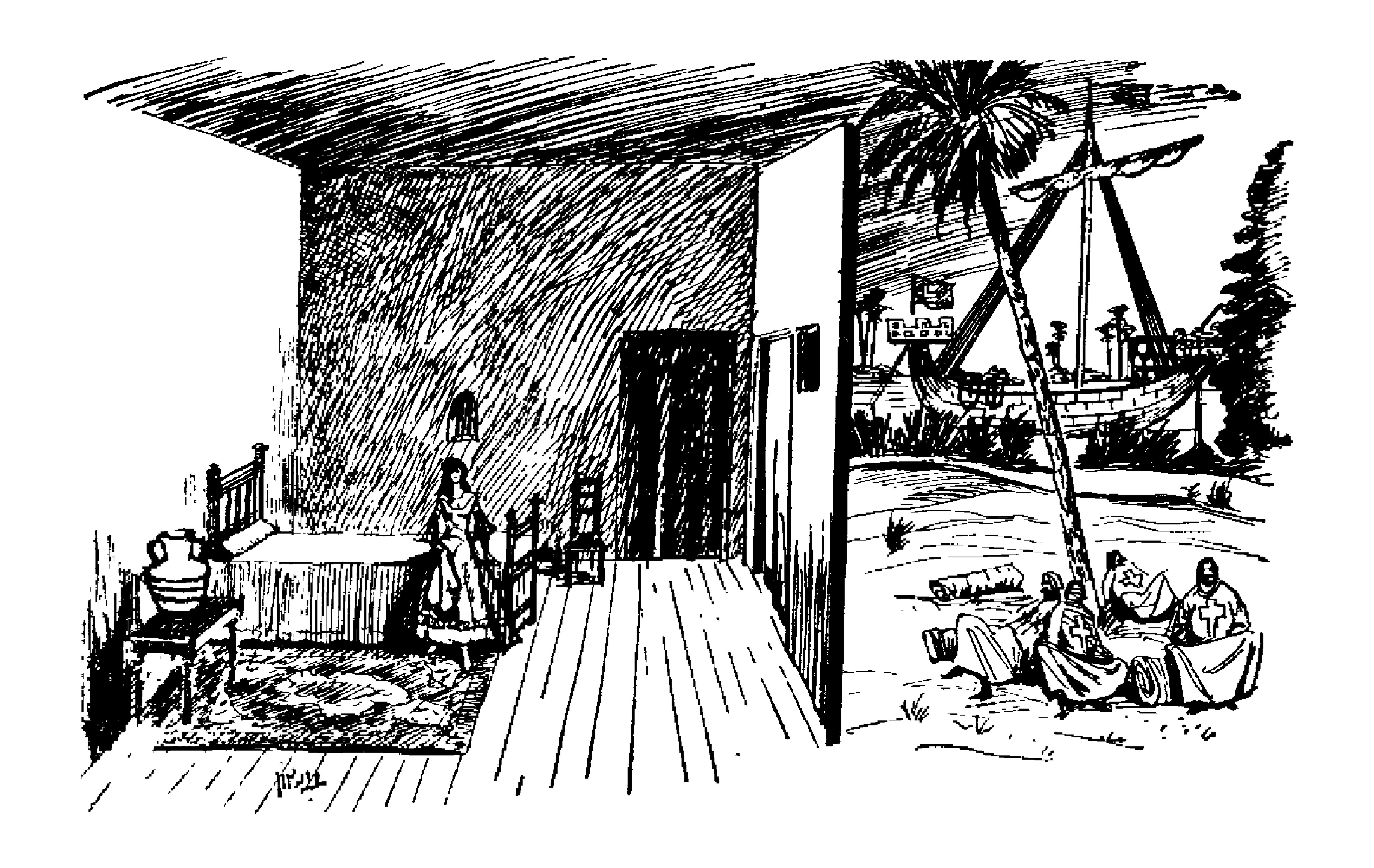
(عند ظهر يوم الأربعاء السادس من
أبريل عام ١٢٥٠ . قرية منية عبدالله
الواقعة على الشاطئ الشرقى لفرع
دمياط بالقرب من فرسكور ، بين
دمياط والمنصورة)

(المسرح يشمل الساحة الواقعة بين المزارع المجدبة على شاطئ النيل – فرع دمياط ، وأول منازل القرية الظاهر إلى اليسار .

فرع النيل فى الخلف ، رست على شاطئه سفينة حربية من سفن الصليبيين ، جلس بحارتها فيها وبجوارها ، ونبات الحلفاء ، الذى نما طويلا وكثيفا ، يخفى بعضهم .

بالساحة بضع نخلات وقطع من جذوع الأشجار ، جلس عليها وعلى الأرض حولها ، أكثر من مجموعة من الجنود الصليبيين ، منطرحين أو متساندين فى إعياء ويأس ، وقد بان عليهم الإرهاق والضعف من المرض وسوء التغذية .

البيت الذى إلى اليسار من بيوت الفلاحين العادية ، لكنه جيد البناء . الغرفة الأمامية منه ظاهرة كلها أمامنا . بالحائط الأيمن للغرفة نافذة ، وباب يؤدى إلى الساحة ؛ وفى صدرها إلى اليمين ، باب يؤدى إلى بقية غرف الدار .



أثاث الغرفة بسيط جميل ، وإبريق حر قد وضع فوق منضدة بجوار فراش بالجانب الأيسر .

إنه منزل سيمون ، الغانية التي أتت من ضواحي باريس في ركاب حملة القديس لويس ، تبيع المتعة لرجالها وبحّارتها ، وقد احتلته بعد أن هجره أهله من الفلاحين أمام زحف الصليبيين ؛ فهو يقع في قرية على الطريق المؤدي من دمياط إلى من كانوا محصورين أمام « بحر أشموم » ، والشاطىء أمامه صالح لترسو عليه السفن ، مما جعل القرية محطاً للتموين، لا تخلو من الحرس والبحارة والفرسان .

عند ما يرتفع الستار ، نرى سيمون جالسة على حافة الفراش ، وبين يديها ثوب كانت تطرزه ، لكنها تضع يديها الآن في حجرها ، ممسكة بالثوب ، ساهمة واجمة .

يدخل المسرح من اليمين ، ريشار ومارسيل ، يسندان جوزيف بينهما ، وهو لا يكاد يستطيع المشى ، وخلفهم جاستون . الجميع قد اصفرّت وجوههم ، وبهت لون شفاههم . يسرع جاستون إلى باب الدار ، ويطرقه في عنف)

جاستون : (ينادى في شدة وإلحاح) . . يا سيدة باريس .. افتحى . . زبون متعجل . . .

سيمون : (تطل من النافذة ، وقبل أن تتبين الطارق ، تصيح في نفاد صبر) الزم الأدب ! . ليس عندى طعام . . قلت ليس عندى شيء أقدّمه لكم ..

جاستون : افتحى هذا الباب وإلا حطمته . . إنك لم تغلقيه ليلة واحدة

في وجه رجل ، خلال عمرك المديد .. (يعاود طرق الباب بقدمه وقبضة يده)

سيمون : (في غضب ، وقد تبينت الطارق) أنت أيها الرجل المتحذلق !؟... لعل سهما يكون قد أصاب قلب سيدك القاسي ، الذي قضى ليلة يحطم ضلوعي بين ذراعيه ، ثم أعطاني أجرى صفعة في الصباح . .

مارسيل : (صائحا ، وهو يترك جوزيف مع ريشار ، ويتقدم) أيتها المرأة . . معنا زميل تكاد الحمى تقتله . . . اصنعي معروفا مرة في حياتك ... لن يضيق فراشك بالمرضى ، وقد اتسع دائما للأصحاء . . .

(يعاود جاستون الطرق في عنف ، فتسرع سيمون نحو الباب . تفتحه وتخرج إلى الساحة)

سيمون : (في حدة ، وقد خرجت) لقد أعددت منزلي لاستقبال جلالة الملك . . . (تشير إلى السفينة على شاطىء النيل) . . سأستضيفه قبل أن تحمله هذه السفينة مع الملكة إلى دمياط . . . لا أستطيع إدخالكم . .

ريشار : أدخلينا ، فلن يسافر قبل الانتهاء من مفاوضاته مع المصريين ! . . إنهم يقررون الآن مصير الحملة كلها !

سيمون : وماذا يهمني أنا ، والمماليك هم الذين يطلبون الصلح ؟ !

مارسيل : بل نحن الذين نتلهف عليه . . الجيش كله ينتظر بفارغ

الصبر ... ماتسفر عنه المفاوضات !

ريشار : إنها أملنا الوحيد ، وتهمك كما تهمنا... دعينا ننتظر أخبارها في بيتك ... (يُرقد جوزيف على الأرض ، ويقول فى استعطاف) أخبرنى زميلى جاستون ، أن لديك خبزاً أبيض !

جاستون : (وقد تمسكن) لم نأكل منذ ليلة أمس . . . ومنذ خمسة أيام ، لا نأكل إلا لحوم الخيل والبغال المريضة ، نذبحها وهى تموت جوعا ..

سيمون : (لجاستون ، فى شماتة)منذ أسبوعين ، كنت تعاون سيدك فى ضربى !.. واليوم ، تستجدى منى الطعام ! (تقلد لهجته) ألست أنا « العجفاء التى لاتساوى بصلة » . . كما قلت لسيدك ؟ (تعود رنة الغضب إلى لهجتها) لا . . ليس لدى طعام ، إلا ما سأقدمه إلى جلالته . . .

مارسيل : (فى غضب) هاتى ما عندك . . . لن يدخل الملك بيتا كهذا . . .

سيمون : (تشير إلى الجنود فى أنحاء الساحة) قال لى هؤلاء المرضى الذين أنزلوهم من تلك السفينة ليركبها الملك . . . إن المرض و قلة الغذاء يقلقان جلالته أمام بحر أشموم . . . كيف يسافر ملكنا إلى دمياط ، دون أن يستريح ، أو يتناول شيئا من الطعام ؟

مارسيل : (لجاستون) هل تسمع يا جاستون ؟ .. المأوى للملك .. والطعام للملك .. ثم يتركنا نموت ، ويذهب إلى دمياط !

سيمون : لا تقل هذا عن مليكنا الطيب ! سألتمس من جلالته الغفران ، عندما أضيق بأمثالكم .. وأعتزم العودة إلى فرنسا . . .

مارسيل : هل تظنين أنك ستعودين ؟ ! ... « قَدَاسَتُه » لم تَرُدّ عنا بضع مئات من المصريين . . يذبحون الآن آلافا من زملائى أمام فارسكور . . .

سيمون : (فزعة دهشة) وماذا أتى بالآلاف منكم إلى فارسكور ؟

جاستون : كنا نحاول إنقاذ ما يمكن انقاذه ، بالعودة إلى دمياط .. خلال الوقت الذى نربحه بالمفاوضات ؛ لكننى أرى الآن .. أننا لن نذهب إلا إلى باطن هذه الأرض التى نقف عليها . . .

سيمون : (جزعة ، وقد داخلها الخوف) غير صحيح ما تقولون ... لقد راقبتُ جحافل جيشنا تذهب إلى المنصورة . . مئات السفن رَست هنا ليستريح بحارتها . . . آلاف غفيرة من الفرسان والمشاة وحَمَلَة الأقواس ، توقفوا عند هذه القرية ، يوما بعد يوم ، قبل أن يواصلوا سيرهم ...(تلتفت إلى مارسيل وجاستون ، غير مصدّقة ما قالا) كل هؤلاء ... لا يمكن أن يُهزَموا .. ؟!

مارسيل : كلهم تعثروا فى الطريق . . تساقطوا كقطيع أنهكه طول المسير . . . فتراى على الأرض لاهثا . . .

جوزيف : (يئن وهو مستلق على الأرض . يقول فى حشرجة) . . آه . . سأموت ... اقتربت نهايتى . . .

جاستون : (مشيرا إلى جوزيف) هل ترى زميلنا هذا ؟ . . سيجعلك الوباء تخافين بعد قليل من النظر إلى وجهه . . . سيصبح الاصفرار الذى كسا به الجوع وجنتيه ، احمراراً لامعا . . . وتحتقن عيناه . . ويتدلى لسانه مشققا مسودا ... ثم تسلمه غيبوبة الحمى ... إلى منجل القضاء الرهيب . .

ريشار : (فى كآبة ، وقد تذكر كل ما مر بهم فى ليلتهم ويومهم) المصريون . والجوع والوباء . . أف لرائحة الموت . . تملأ خياشيمى مع رائحة الطين . .

سيمون : (باكية) لا . . لا يمكن أن تتخلى السماء عن ملكنا القديس . .

مارسيل : (فى سخط . .) قدسه رجال الدين ، حتى وضعوه فى جيوب أرديتهم الفضفاضة ... أضاعونا معه هذه المرة !.. لم يحسب أحد حساب شعب مصر !

(تسمع أصوات جياد متعددة تقترب ثم تتوقف . تمد سيمون بصرها إلى المكان الذى سبق أن دخل منه مارسيل وزملاؤه)

سيمون : (لمارسيل ، وهى تتطلع) اسكت .. لقد وصل جلالته مع الملكة ...

ريشار : إذن لا بد من أنهم وصلوا إلى اتفاق مع المصريين ...

مارسيل : أو قرروا أن نفنى جميعاً ! ..

(تقترب الضجة . يدخل الملك مع الملكة إلى المسرح من اليمين ، وخلفهما قطر الندى يمسك بها الفارس جون ، يتبعهم الكاردينال روبرت وسارجين وفيليب . تجرى سيمون مسرعة نحو القادمين ، تركع أمام الملك ..) .

سيمون : مولاى . . شرفنى بزيارة منزلى المتواضع ، قبل أن ترحل . .

الملك : (فى إعياء ، وهو ينظر إلى من حوله) من قال إننى راحل ! ؟

سارجين : (مشيرا إلى الجنود المنتشرين ، ثم إلى السفينة) لقد ترك هؤلاء المرضى مكانهم فى تلك السفينة منذ أمس ، لتبحر بها جلالتك إلى دمياط . . لا مفر من سفرك اليوم . . ! المرض يشتد بك .. ويكفينا من ذبحهم المصريون من رجالنا منذ بدأ انسحابنا أول أمس ! .

(تقف سيمون جانبا تتابع باهتمام مع الجنود ما يجرى)

الملك : قررت الرحيل قبل أن يدهمنا المصريون عند فارسكور . . (فى تصميم) أما الآن .. لن أترك رجالى ، والمعركة على أشدها هناك ...

سارجين : إنها ليست معركة .. بل مذبحة ! ! . . (فى سخط) . . . كان يجب أن يبدأ انسحابنا منذ منع المصريون عنا سفن الطعام ... منذ انتشر فينا الوباء !..

الملك : ذهابي إلى دمياط ، هروب من المعركة ! ... جنودى يكافحون الآن دفاعا عن شرفى ...

سارجين : بل يكافحون من أجل حياتهم !! ... لو أخذوا أسرى قبل عقد الصلح ، لفقدوا رءوسهم جميعا ! . .

الملك : (بإصرار) .. لقد أرسلت السير دى جوانفيل ، لعرض شروط صلح معقولة على المصريين .. سنضع نهاية لكل شيء ! ...

فيليب : (وهو يصر بأسنانه) .. نهاية لأحلامنا .. !

الملك : (مؤنبا) يجب أن نتجلد ، فى هذه اللحظات التى ازدحمت فيها الخطوب علينا ... (يلتفت إلى الملكة) ... يا زوجتنا العزيزة ... الحكمة على أن نبحرى بالسفينة الراسية هنا ، وتسبقيني إلى دمياط .

الملكة : وأترك جلالتك وأنت على هذه الحال من المرض ؟ ! ..

الملك : لسنا ندرى ماذا تحمل إلينا الساعات القادمة ... (مشيرا إلى الفارس جون) سيرافقك السير جون ... اذهبى أنت ووصيفتك

فطر الندى : أنا لن أذهب .. !

جون : (فى جفاء) اصمتى أيتها الفتاة العنيدة ! . بالأمس تحاولين الهرب للمرة السابعة ، واليوم تمطين نفسك حق الاعتراض على الرحيل ! ؟ ..

الملـكة : (لقطر الندى) لو بَقيتِ ، لانتقم منك جنودنا لما يحسونه من ذل أمام أهل بلدك .. !

قطر الندى : وجودى معكم مذلّة لأهل بلدى .. أعود إليهم ولو مت فى سبيل ذلك ! . .

جون : (حانقا) هل سيتعذر علينا الاحتفاظ بأسيرة ، وقد سقط نصف جيشنا وسفننا فى الأسر اليوم ؟ ! . .

الملـكة : (فى قلق) كيف تأمنون إذن أن أرحل فى سفينة ؟ ! ..

الملك : لقـد خلّـفنا وراءنا بحر المحلة ، الذى تَـكمُـن لنا فيـه سفن المصريين . .

الملـكة : . . أى بشاعة أن تسقط ملـكة أسيرة ، بين أيدى جنود منتصرين

الـكاردينال : السفن أكثر أمانا من الشاطىء . . .

الملـكة : والموت أفضل من الأسر . . (لجون فى حزم) يا سيرجون : لو أُسِرَتْ سفينتنا ، فعليك واجب يجب أن تُقسِم على تأديته . .

جون : أى واجب يا مولاتى ! ؟

الملـكة : أن تَقطع رأسى ، بضربة واحدة من سيفك ! . .

الملك : لماذا هذه الخيالات يا زوجتنا ؟ ! . .

الملـكة : (فى تصميم ، لجون) أقسم يا سير جون ، وإلا فلن أضع قدما على هذه السفينة . . .

الملك : (آسفا) لقد فَـقَدْتِ كل ثقة فى الله يا زوجتنا ! . .

الملكة : إن الله لم يكن معنا فى أية خطوة خطوناها هنا ... لفظ الله ، لم يكن بالنسبة إلى القادمين جميعا ، إلا مجرد رمز .. شعار يسترون به أطماعهم ومفاسدهم .. (لجون) أقسم يا سير جون ! . .

الملك : (مستسلما) لا حاجة به أن يفعل ذلك أمامى ... إن السفينة تنتظر ...

الملكة : (لقطر الندى) هيا يا قطر الندى !

قطر الندى : (محتجة) سترحلون قريبا عن مصر ... ما حاجتكم عندئذ إلى مصرية لا تريد البقاء معكم ! ؟

جون : (لقطر الندى) إذا أرادوا إغراقنا فى الطريق ، فقد يتركوننا ، إذا علموا أن معنا فتاة مصرية .. هيا ...

(يمسك قطر الندى من ذراعها ، ويجذبها نحو السفينة)

قطر الندى : (وهى تقاومه فى عنف) أتعنى أن يغرقونا ، فأهرب أو أموت !

(تدخل الملكة السفينة ، بينما يدفع جون قطر الندى إلى داخلها)

الملك : (وقد وقفت الملكة فى مقدمة السفينة) شجعى رجالنا فى دمياط يا صاحبة الجلالة .. قاوموا حتى النهاية .. دمياط هى الورقة الأخيرة ، التى يتفاوض عليها رسولنا الآن معهم . .

(تتحرك السفينة مختفية من يسار المسرح)

الملك : (لمن حوله) دعونا نجلس حتى يصل جوانفيل . . . ساقاى تخذلانى ...

سيمون : (تتقدم من مكانها الذى كانت تقف فيه) تفضل يا مولاى .. ان منزلى معد لاستقبال جلالتك ...

الكاردينال : (ينهرها) كيف تجرئين ؟ ! .. لقد حدثنى الرجال عن .. جحرك الموبوء !

سيمون : (فى سخرية خفية) سيطهر دخولكم ، بيتى المتواضع ! ..

الملك : (الكاردينال فى اعياء) إننى فى غاية الضعف والإرهاق يا كاردينال .. (لسيمون) أين منزلك يا سيدة ؟

سيمون : تفضل جلالتك (تتقدمه الى باب بيتها وهى تقول) لقد أعددت لكم طعاما جيدا ...

الملك : (يتوقف) لا . . . (يلتفت إلى جاستون وريشار ومارسيل ، ويقول لسيمون) اعطى هؤلاء الرجال حاجتهم من الطعام ..

ريشار : (فى صوت خافت) شكرا ياMolاى ...

(يدخل الملك المنزل . تهم سيمون بأن تتبعه ، فيستوقفها الكاردينال)

الكاردينال : (لسيمون، همساً) لا تعط شيئا لهؤلاء الرجال .. إذا لم يأكل الملك ... سآكل أنا ...

(تمعن سيمون النظر لحظة فى عينيه ، فيحول وجهه عنها ؛ تتركه وتدخل الدار . تتأمل الملك الجالس على حافة الفراش

فى إعياء وقد غرق فى التفكير ، ثم تختفى داخل الدار من الباب الذى فى عين الحائط المواجه . يهم الكاردينال بدخول المنزل، لكنه يتردد عندما يلاحظ أن سارجين وفيليب لم يدخلا ، فيتخاف معهما .

تخرج سيمون من داخل الدار إلى حيث يجلس الملك ، وهى تحمل صينية عليها طعام ، تضعها على منضدة بجوار الفراش ، ولكن خواطر الملك لاتترك له أن يتنبه إليها .

فى الخارج يعود جاستون ومارسيل وريشار، ليجلسوا حول جوزيف المحتضر ، بينما يقترب الكاردينال من سارجين وفيليب)

سارجين : (لفيليب ، متنهدا) جئنا لإنشاء إمارات . . نحن المحرومين من الميراث . . فوجدنا قبوراً لا إمارات . .

فيليب : (فى سخط) لقد غرّروا بنا . . عندما زعموا أننا سنسود الشرق فى أيام ، فإذا بنا نموت فى طين مصر وقنواتها .. !!

سارجين : (فى سخط أيضا) إن هؤلاء المصريين ، الذين تراهم فتحسبهم أكثر أهل الأرض مسالمة وطيبة ، لا ينهزمون قط .. قد يخسرون معركة ، لكنهم لا يخسرون الحرب أبداً ..

الكاردينال : لا تفقدا الأمل على هذا النحو .. لقد بارك البابا هذه الحملة !

سارجين : (ساخرا فى تحدٍّ) باركها لأنه كان يطمع فى ضم كنيسة الشرق إلى كنيسة روما ! ..

فيليب : لكنه لم يخسر شيئا عندما حطم المصريون أحلامه ! .. أما أنا .. لقد خسرت كل شىء ..

سارجين : (فى تصميم) يجب أن نضع حداً لكل هذه المذابح .. يجب

الاتفاق مع المصريين بأى ثمن ..

(تقترب أصوات جياد ثم تتوقف . يدخل من اليمين جوانفيل ، يصحبه الطواشى جمال الدين محسن الصالحى ، وبيبرس البندقدارى ، وخلفهم ثلاثة من الفرسان المصريين)

جوانفيل : (مناديا) أين الملك أيها الأب الكاردينال ؟

الكاردينال : داخل هذه الدار يا سير دى جوانفيل .. (يسأل ، وجوانفيل يتقدم مع جمال الدين وبيبرس ، وقد توقف البقية) من هؤلاء المصريون الذين معك ؟

جوانفيل : (مشيرا إلى جمال الدين وبيبرس) هذان نائب السلطان ومقدم مماليكه ... رفضا التفاوض إلا مع الملك ، فجئت بهما إليه ..

(يلتفت إلى جمال الدين وبيبرس ويقول) الملك بالداخل ..

(يدخل جوانفيل الدار ، فيتبعه جمال وبيبرس وخلفهما الكاردينال ، ثم سارجين وفيليب)

جمال : أين ملككم ؟

الملك : (متقدما) أنا هو يا سادة ...

جمال : (فى حزم) كل الشروط التى حملها رسولك .. مرفوضة ! (متسائلا فى استنكار) رجالكم يتساقطون قتلى وأسرى كأوراق الشجر ، ثم ترسل من يطلب أن نسلمكم بيت المقدس ؟ ! ..

الملك : مقابل تسليمنا دمياط إليكم ! .. إنها لا تزال فى أيدينا ..
الإمدادات تأتيها تباعا،من قبرص والشام وأوربا ..

جمـــال : طوال أربعة قرون .. أشرفنا فيها على بيت المقدس ، لم نمنع مسيحياً من الحج إليها .. أما أنتم .. ما إن أنشأتم إماراتكم على أرضنا المغتصبة فى الشام ، حتى كانت وسيلة أمرائكم فى الحصول على الأمـــوال ، أن يسلبوا قوافل حجاجكم المسيحيين أنفسهم ! .. (فى حزم !) لن نمنحكم أية سلطة هناك ! ..

الملك : (فى ضيق) إذن أنتم لا تريدون حسم هذه الحرب ! ..

سارجين : (للملك، فى صوت فشل فى أن يجعله همسا ، لما فيه من ضيق و نفاد صبر)
لنتروى فيما يقولون يا مولاى .. !

الملك : (لسارجين ،فى صوت لم يهتم بأن يسمعه المفاوضان) إنهما يريدان استسلاما لا سلاما ! ..

جمـــال : (كرد على الملك) إنكم لم تسمعوا شروطنا بعد ! .. لن نوقف الحرب ، حتى تلتزموا بأن تسلموا إلينا نصف إماراتكم على ساحل الشام .. (مشيرا إلى الملك) ونأخـذك رهينة يا ملك الفرنسيس ، حتى يتم تسلمنا لها ..

جوانفيل : (متقدما فى اندفاع إلى الأمام) لن نترك جلالته لـكم أبداً ..

تقطع رقابنا جميعاً ، ولا نعطى ملكنا رهينة عنا !

الملك : (لجمال) وليس لى سلطان على إمارات الشام .. إنها ملك الفرسان ..

بيبرس : ليست لكم أملاك فى الشرق .. كلكم غاصبون ! ..

جمال : (للملك) كل أهل بلدك يعتقدون فيك يا ملك .. لوطلبت من فرسان الشام أن يسلمونا عكا وصوروصيدا ، مقابل حقن دمائك أنت وجيشك ، فلن يترددوا فى تلبية مطلبك !

الكاردينال : أؤكد لكم جلالته أنه لا يملك فى هذه المسألة شيئاً . . !

جمال : لقد عرضنا شروطنا ، ويجب أن يكون ملككم ضمان تنفيذها ... أنتم تعرفون الآن فى وضوح ، من يحق له إملاء الشروط .. ومن يتعين عليه قبولها !..

سارجين : (الملك ،فى نفاد صبر) يجب ان نبت الآن فى الأمر يامولاى.. من الخطر الانتظار أياما أخرى ...

الملك : (لسارجين، فىحزم يشوبه إعياء) لا بد لنا من بعض امتيازات فى بيت المقدس !.. (لجمال الدين) ارجعوا إلى سلطانكم . . اسألوه رأيه . .

جمال : وأين الأسيرة المصرية ،التى كانت تعيش مع الملكة ؟

جوانفيل : ماشأنها بالمفاوضات ؟

جمال : طلب منا أهلها السؤال عنها ..!

الملك : إنها فى دمياط ... ستعود إليكم دمياط بمن فيها ، إذا وافقتم على شروطنا . .

جمال : (فى نفاد صبر) إنك لاتقدر سوء موقفكم ياملك . .. أنتم الخاسرون فى كل يوم تستمر فيه هذه الحرب ... غداً ، لن يـكون لك جيش !

(يستدير جمال الدين ويخرج يتبعه بيبرس ، يتجهان إلى الفرسان المنتظرين بالخارج)

جمال : هيا يارجال

(يختفى المصريون من ناحية اليمين ، و تسمع أصوات خيلهم تبتعد)

سارجين : (ساخطاحانقا) هل نحن فى موقف نستطيع فيه إملاء أية شروط ! ؟ !

فيليب : (محتدا) لم يعد لنا ما نساوم عليه ، سوى أرواحنا !..

الملك : لا بد أن نعود وقد حافظنا على شرفنا ، وحققنا شيئا من أهداف حملتنا .! لابد من بعض الامتيازات فى أورشليم !

سارجين : سنفقد كل شيء بهذا التأخير فى إبرام الصلح ! .

الـكاردينال : لن يتخلى الرب عنا إلى النهاية .. لقد جئنا فى سبيله . !

سارجين : (وقد أخذ يثور) بل أردتم خداع الرب فتخلى عنا ... لم يأت واحدمن هذه الآلاف الـكثيرة .. إلا ليحصل على إمارة أو تجارة . . . أو غفران لخطاياه .. حتى أنا ! .. لقد ألقى

الرب بنا إلى شاطىء هذا النيل الهادر ، لنكون طعاما لأسماكه .. أو لطيور السماء ! ..

الملك : (متنهدا فى كآبة) لا تنسبوا لله سوء التدبير !. .

سارجين : (فى ثورة) ألم يأمرك الله أثناء مرضك يا مولاى .. بغزو الشرق ؟!

الملك : (فى صوت مثقل واضح النبرات) لم أقل أبدا .. إننى تلقيت من الله أى أمر ! . .

(ترتفع أصوات استنكار ودهشة من الجميع ، عدا الكاردينال الذى يقف ساكتا)

جوانفيل : (منزعجا وقد فوجىء) كيف !

سارجين : (فى نفس الوقت ، فى شك قاتل) هل تقصد ماقلت يامولاى !؟

فيليب : (مع جوانفيل وسارجين ، مستنكرا) كلنا واثقون أن الرب أمر جلالتك !..

الكاردينال : (محذرا الملك) لا تفصح لهم عن شىء يامولاى ! ..

جوانفيل : (للملك) أكدت لى الراهبة التى كانت بجوار سرير مرضك يامولاى ، أنها سمعتك تقول : سأذهب إلى الشرق يارب.. سأستعيد لك بيت المقدس ... !

الملك : ... إنه نذر نذرته ... ويبدو أن الرب لم يقبله !...

سارجين : (فى ثورة) لا يمكن أن تكونوا قد خدعتمونا جميعا .. عشرات الألوف من الرجال الذين جاءوا معنا ، يعتقدون أن

الرب أمر جلالتك بالمجيء ... !

الـكاردينال : (وقد حني الملك رأسه في آسي فلا يجيب) كان يجب أن نتركهم يعتقدون هذا .. العامّة في حاجة إلى ما يؤمنون به ، ليُقْبِلوا على الموت ! ..

الملك : (مؤنبا نفسه) الرب برىء من دماء كل الذين ماتوا من الرجال ..

سارجين : (في ثورة جامحة) الـكاردينال والملك !.. لعبت بنا الكنيسة والعرش !...

(تبدو سيمون وقد جذبها صراخ سارجين)

الـكاردينال : (ناهرا سارجين) ياسيردي سارجين... أملك زمام ألفاظك..

سارجين : (في نفس الثورة ، للـكاردينال) إنك أنت المسئول الأول عن كل هذا يا كاردينال ... سمّيت ملـكنا القديس ، فاقتنع أنه مبعوث السماء للقيام بهذه الحرب ... واستعان جلالته بالبابا .. فأوفدكم تبيعون صكوك الغفران لتمويل الحملة ، وتعِدون كل من يأتي معنا بالغفران التام لخطاياه... ثم تركتمونا نموت تحت أقدام هذا الشعب ، الذي كنتم تجهلون كل شيء عن قوته وإصراره ... (للملك في حقد) لقد اعتاد الملوك أن يخدعوا شعوبهم، لـكنك آمنت بخدعتك هذه المرة يامولاي ! ...

جوانفيل : (صائحا فيه) أصمت أيها الفارس ..

فيليب : (ثائراً أيضاً) إنه على حق فيما قال .. لقد أضعتم كل شيء ! ...

سارجين : (مندفعاً فى ثورة) لن أبقى مع طغمة من الغشاشين . . أيها المخادعون ! ..

(يخرج فى ثورة عنيفة)

فيليب : (فى مثل حنق سارجين) وأنا أغسل يدىّ منكم ... (يخرج خلف سارجين)

الكاردينال : (للملك ، فى حنق شديد) يجب عزل هذين الفارسين .. يجب إعدامهما ! ...

الملك : (وهو يمسك رأسه بين كفيه فى يأس وقنوط) دعني يا كاردينال .. اتركانى ... دعونى وشأنى ...

(يصمت الكاردينال وهو يتبادل النظر مع جوانفيل ؛ وتظهر نظرة حيرة وفزع على وجه سيمون ، ثم تختفى فى الداخل ؛ بينما يزداد حنق فيليب وسارجين فى الخارج)

سارجين : (لفيليب ، فى سخط مشتعل) أليس هذا هو الملك الذى طالما علّمته أمه المتعصبة ، أن يعمل ما يتصور أنه فى صالح العقيدة .. ولو كان فى هذا العمل ضياع مصالحه ومصالح شعبه !؟ ...

فيليب : لقد أصبح مجنونا بشيء اسمه استعادة امتيازات فى بيت المقدس ! . . لقد تعبنا من هذا الملك المتعصب .. ومن هؤلاء الذين يقدسون كل مايقول ، كأنه نبي معصوم !

سارجين : سنفنى جميعا إذا لم نسلِّم إلى المصريين بمطالبهم ، فوراً

وبلا إبطاء !

فيليب : سيقتلون جميع الباقين من مذبحة فارسكور ...

سارجين : لقد أتى من جاءوا معنا من أوربا ، طامعين فى الجنة !.. ستذهب سيوف المماليك بهم إليها سريعا .. ومن أتى يبغى أسلابا ، فجزاؤه الحق أن يقتل . . كان يجب أن يأتى من أجل المسيح فقط.. (ينادى فى قوة وقد اتخذ قراراً حاسما) مارسيل.. يا مارسيل . .

مارسيل : (وقدجاء مسرعا) نعم ياسيدى . .

سارجين : هذه أوامر جلالته .. ليلقى جنودنا وفرساننا سلاحهم فورا وبغير إبطاء . . إن حياة جلالته ستكون فى خطر ، إذا لم ينفذوا هذا فوراً ...

مارسيل : هل أعلن هذا الأمر ياسيدى ؟

سارجين : أنامستشاره ، أنقل إليكم مشيئته المقدسة . . .

فيليب : أسرع .. إن كل دقيقة تقرب الخطر من جلالته ومنكم ...

مارسيل : (صائحا) يا كل من هنا .. ملكنا الطيب يطلب منكم إلقاء السلاح . . أوقفوا القتال حتى لا تعرضوا حياة مولانا للخطر . . . ألقوا السلاح ...

(ينطلق مارسيل إلى خارج المسرح وهو يردد نفس النداء ، وقد تقدم جاستون وريشار ، وألقى كل منهما فى إعياء بما معه من ترس وحربة، فيتقدم بقية من كانوا قد تخلفوا بعد رحيل السفينة،

ويفعلون المثل • يتردد نداء مارسيل عاليا من خارج المسرح)

ألقوا السلاح .. لاتعرضوا حياة مولانا للخطر ...

صوت : (يتجاوب مناديا) ألقوا السلاح ..

صوت آخر : (من ناحية أخرى) لا تعرضوا حياة مولانا للخطر .. ألقوا السلاح ..

(ما إن يسمع الملك وجوانفيل والكاردينال النداءات وهم داخل البيت ، حتى يقفوا منصتين ، ثم يندفعون هم الثلاثة إلى الخارج ، تتبعهم سيمون ، وقد أخذت جماعات من الجنود تفِدُ إلى المسرح من اليمين ، فى بطء وإعياء ، فيلقى أفرادها سلاحهم بغير اكتراث ، ثم يبتعدون فى سكون وبطء)

الملك : (فى ثورة) ما هذا ؟!

الكاردينال : (فى نفس الوقت مع الملك ، حانقا) ماذا يقول هذا المجنون ؟ !!

جوانفيل : (صائحا) ماذا يفعل هؤلاء الجنود ؟ !!

سارجين : لقد تعبوا من معركة خاسرة ! ..

نداء : (من الخارج) ألقوا السلاح

الملك : (لسارجين) هذا الجندى المجنون .. دعه يكف عما يقول !

(يجرى جوانفيل ناحية اليمين صائحا فى الجنود)

جوانفيل : نادوا هذا المجنون ... دعوه يكف .. (يخرج من المسرح وهو لا يعرف إلى اين يتجه . يستمر مجىء الجنود وطرحهم أسلحتهم)

الملك : (صائحا فى صوت مختنق من الغضب) أنا آمر المنادين بأن يكُفُّوا ! . ..

أصوات : (تتجاوب من خارج المسرح نداءات استسلام متعددة)

سارجين : أنت ترى يامولاى ! .. لقد لبّى هذا النداء حاجة شديدة ، لدى كل افراد جيشنا البائس .. !

فيليب : ماداموا لن يظفروا ببيت المقدس .. فليظفروا بحياتهم ! ..

الكاردينال : (فى ثورة) حتى حياتهم سيفقدونها ..

سارجين : (فى سخرية خفيّة) هذه مشيئة الرب ! ..

جوانفيل : (يدخل يائساً) الجميع يلقون أسلحتهم .. لا جدوى من محاولة منعهم ..

فيليب : لم يتغير الأمر كثيرا ... لم يعد ثمة فارق كبير ، بين وجود الأسلحة على الأرض .. أو بقائها فى أيديهم ..

الملك : لقد كنا نتفاوض ! ..

سارجين : سيكون لدينا منذ الآن ، وقت أطول للتفاوض . . . دمياط لاتزال فى أيدينا ..

(تسمع أصوات خيل تقترب ثم تتوقف)

سارجين : (وهو ينظر إلى اليمين) .. بل ... لقد عاد المتفاوضون ..

(يدخل الطواشى جمال الدين وبيبرس، مع عدد كبير من الجنود والفرسان المصريين)

جمال : (داخلا ، يأمر من معه) أحدقوا بكل من هنا .. لا تدعوا أحدا يفلت ! ..

الملك : صبرا ياسادة .. هل هذا رد سلطانكم ؟ !! ..

جمال : نعم ياملك الفرنسيس !

(يبسط قيداً حديدياً بين يديه)

وقد أمرنا أن نضع هذا فى يديك ..

سيمون : (ترتمى صارخه بجوار الملك) مولاى ؟!! ..

(يندفع جوانفيل والكاردينال فيحُولان بين الملك وجمال الدين)

جوانفيل : (صائحا بجمال الدين) ما هذا ؟!

جمال : (فى عنف وجفاء) قيد حديدى .. لا أكثر ولا أقل ..

(يَسُل جوانفيل سيفه ، وقد وقف أمام الملك فى مواجهة المصريين)

جوانفيل : لا .. لن يقترب أحدكم من جلالته ..

(يسل المصريون سيوفهم ، ويتقدمون)

الملك : (وهو يزيح جوانفيل برفق) كيف تأسروننا ولم تنته المفاوضات بعد ! ؟

جمال : (فى حزم) لقد أنهى جيشك المفاوضات !

جوانفيل : دمياط لا تزال فى أيدينا ..

بيبرس : سننتزعها .. إن لم يكن اليوم ، فغداً ! ..

الملك : (فى اكتئاب ، بعد أن يصغى لحظة إلى نداء يترامى من بعيد يكرر طلب إلقاء السلاح) وإلى اين تذهبون بنا ؟

جمال : إلى المنصورة !

جوانفيل : سيدى الملك .. هل تستسلم ؟!

الملك : (منهكا) قد ننقذ بالمفاوضات ، أرواحا ، لن ينقذها موتنا ..

جوانفيل : ماجدوى التضحية فى سبيل هذا الجيش ، الذى تداعى عند أول نداء ؟

سارجين : تداعى لأن رجاله أصبحوا فى واد وقادته فى واد آخر ! لو عرفنا ما كان يهمس به كل جندى إلى نفسه ، لا نسحبنا من مصر كلها ، بعد الأسابيع الأولى لاحتلالنا دمياط ! ..

جوانفيل : (ساخطا) الموت أفضل من هذا الاستسلام المهين !

بيبرس : لاجدوى من المقاومة ! .. بقية جنودكم فى فارسكور ، وعلى طول الطريق إلى دمياط ، يلقون السلاح ...

الملك : (لجوانفيل) أنت ترى ياسيردى جوانفيل ، أنه لم يبق معنا أحد!

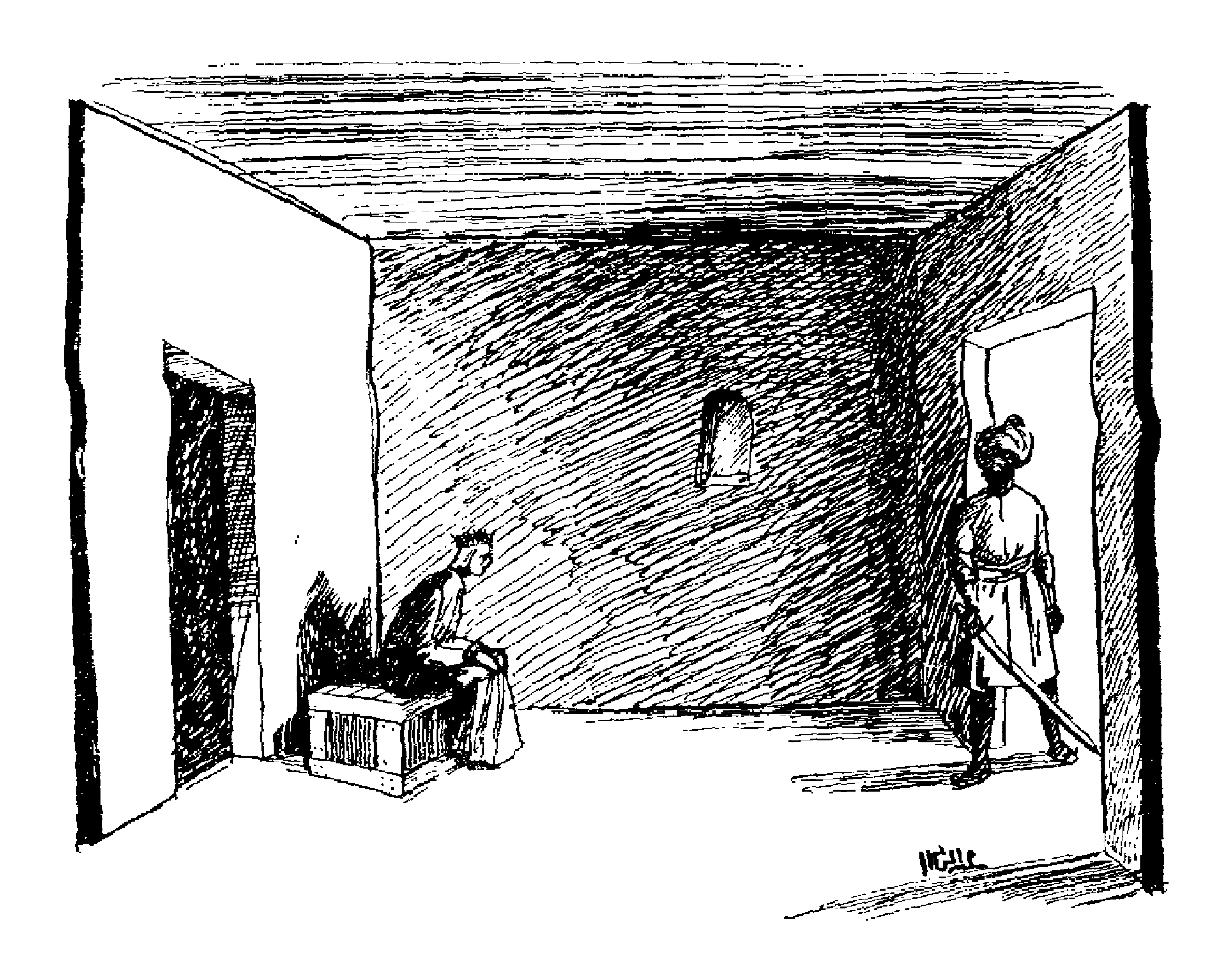
(يمد يديه وهو يقول لجمال فى اكتئاب)

يانائب السلطان . . افعل ما تريد . .

(يعطى جمال القيد إلى أحد الرجال ، فيضعه فى يدى الملك ، بينما يمسك كل مصريين بأحد الفرنج ، وجمال الدين يهتف بهم آمراً)

جمال : إلى المنصورة يا رجال .. وغدا إلى دمياط ! ..

ســتار



المنظر الثانى

(دار ابن لقمان فى المنصورة . الغرفة
التى أسر فيها الملك لويس)

(باب على اليمين يؤدى الى الطريق ، وباب على اليسار يفضى الى غرفة بها بقية كبار الأسرى . وفى الصدر نافذة مرتفعة عليها قضبان متقاطعة . الغرفة عارية من كل أثاث . الملك لويس جالس على صندوق خشبي ، وسلسلة حديدية تقيد إحدى يديه إلى الأخرى ، والطواشى صبيح المعظمى الحبشى ، واقف داخل باب الطريق ، ورمحه فى يده . الملك صامت مطرق مستغرق فى حزنه وخواطره ، وصبيح يحاول أن يخرجه عن صمته ، وفى صوته رنة انتصار وتشف)

صبيح : (للملك) يبدو أن رجالك الذين خلفتهم فى دمياط ، لايحرصون على حياتك ياملك !

الملك : (فى كآبة) لم ينته بعد اليوم السابع ، من الأجل المحدد لتنفيذ شروطكم !

صبيح : أتانا رسول فى الصباح ، قال إنهم يرفضون تسليمنا دمياط ، تنفيذاً للعهد الذى تبادلت القسم عليه مع سلطاننا ... ونصف الفدية المتفق على دفعه مقدما .. لم يصل بعد ..

الملك : الوقت لايزال عصرا .. والأجل ينتهى مساء اليوم ..

(يسأل) وما ذا فعلتم بجنودى الذين لن تشملهم الفدية ؟

صبيح : نُـنزِلُ بهم مايستحقه كل معتد . . . من لايقبل منهم القيام بـكل ما نكلفه به من أعمال ، يتدحرج رأسه على شاطىء بحر أشموم .. بأمر السلطان .

الملك : (فى حزن وندم) أية نهاية دامية .. يا إلهى اغفر لى ولهم .. أنا وحدى المسئول عن هذا الهلاك ...

صبيح : قد تلحق بهم ، إذا لم نتسلم دمياط ،أو لم تصل أربعمائة قطعة ذهبية بالتمام والـكمال .. قبل أن ينتهى هذا النهار ...

الملك : (قلقا) لابد أن تبعث بها الملـكة ... تعلمون يقينا أنها تجمعها ...

صبيح : ولعل رسلـكم الذين ذهبوا إلى دمياط ، لاينسون وصيتنا ، ويجيئون معهم بقطر الندى . . . خطيبها بدر الدين بطل المنصورة ، ينتظرها قلِـقاً .. فقد انقطعت عنه أخبارها ، منذ وقعتم فى الأسر ...

الملك : طالما حذَّرْتُ الملـكة من الإبقاء على تلك الفتاة . . كانت هذه العنيدة على استعداد للتضحية بكل شيء ، حتى حياتها ، فى سبيل الخلاص منا . . .

صبيح : هى فى هذا رمز لبلدنا كله .. ما حياتنا ؟ خلاص مصر هو خلاصنا !.. لـكن إذا سمع أفراد الشعب أنكم أصبحتم أسيراً منا بـكروه ، بعد أن حلفتم على الاتفاق الذى

وقـمناه معـــكم ، وتعهدتم فيه بالامتناع عن تـكرار عدوانـكم . . فسيثورون عليكم ثورة عارمة ...

الملك : لقد ترك سلطانـكم لعامة شعبه ، أن يتقاسموا معه كل انتصار أحرزه بـكم ... أنتم فرسانه !

صبيح : (فى اشمئزاز) حتى وأنت فى الأسر ، تريدأن تؤلب الفرسان على أبناء الشعب الأبطال ! ؟ ... ماأصوب من ينصحون بقتلـكم جميعا . . أنت وأخويك الباقين ، وقادتك الذين فى الغرفة الداخلية .. (يشير اليها)

(يدخل الطواشى جمال الدين وبيبرس وبدر الدين)

جمال : (لصبيح) لن تـكف عن الثرثرة معه يا صبيح ...

صبيح : لولا أوامر السلطان بأن نحسن معاملته ، لمـا اكتفيت بالثرثرة . . .

جمال : ورغم تلك الأوامر ، لا يريد أن نغيّر ما بنفسه ضدنا . . (للملك) لما ذا رفضت يا ملك ، أن تذهب بالأمس ، إلى الوليمة التي أقامها السلطان لك ؟ !

الملك : (مستنكراً فى كبرياء وشىء من الحدة) هل يدعونى السلطان إلى مائدته ، إلا ليهزأ بى جنوده ؟ !

بيبرس : (فى ثورة) أنظروا هذا المغرور ! (للمصريين) لو قتلنا هذا الملك المتعجرف مع رجاله ، لجَنـَّبْنا بلادنا محاولات أخرى للعدوان . .

بدر : قد ينتقم منا رجاله فى دمياط ، بقتل كل من وقع فى أيديهم من مصريين ...

صبيح : (لبدر) آه . . تخشى على حياة عروسك . . ! قد تأتى الليلة مع الفدية ، فلا يبقى من تخاف عليه هناك . . !

بيبرس : (يشير إلى الملك فى قوة) من الأفضل التخلص منه ، فهو رأس الحية ! . . لن يعجز عن جمع آلاف أخرى من المخدوعين ، ليحاول الثأر لهـــذه الهزيمة الساحقة التى أنزلناها به . . .

صبيح : هذه دار ابن لقمان باقية ، نأسره فيها إذا عاد ثانية . . (ضاحكا) وأنا صبيح المعظمى ، باق لأحرسـه . . . (يلوّح بسيفه) وأقطف رأسه بسيفى !..

(يتعالى نداء من خارج الدار)

النداء : يا نائب السلطان . . . الفدية . . .

(يدخل رجل)

الرجل : وصلت الفدية يا سيد جمال الدين . . .

بدر : (يصيح متسائلا، وهو يندفع خارجا) وقطر الندى ؟ (يخرج)

صبيح : (مبتسما ، لجمال وبيبرس) خرج ليرى هل جاءت خطيبته مع الفدية !.. كل بطل، ينتظر اللحظة التى تشاركه فيها عروسه نشوة النصر ...

الملك : ها نحن ننفذ أول شروطنا . . .

بيبرس : (فى احتداد) لقد أكدتَ فى كبرياء أنك توافق على دفع هذه الفدية ، مقابل حياة نبلائك وكبار فرسانك . . . لكنك أبيت دفع فدية من النقود عن نفسك ... أصررت أن نعتبر تسليم دمياط لنا ، هو فديتك . . . ودمياط ، أهم لنا من كل فدية !

(تدخل الملكة ومعها الفارس جون)

الملك : (فى إعياء حالما يرى الملكة) جئتِ بنفسك ؟ ...

الملكة : لم آمن أحداً على الفدية . . . (تركع بجوار زوجها ووجهه قد عاد فواجه الأرض) هل عانيت كثيرا يا زوجى الملك ؟

الملك : لا أدرى: هل أرادوا إكرامى . . أم السخرية منى ! ؟ شىء واحد يمزق قلبى . . كل المشاة والصناع وصغار الفرسان . . كل من بقى من الآلاف العديدة التى جاءت معنا . . يُقتلون الآن على شواطىء الأنهار . . .

الملكة : (وهى تشيح بوجهها جزعة) لقد جمعتُ نصف الفدية المطلوبة بشق النفس .. سننقذ بها بعض من جاءوا معنا ...

(يدخل بدر الدين قلقاً ثائرا)

بدر : (للملكة ، وقد فقد سيطرته على نفسه من القلق) أتت الفدية ، ولا أرى قطر الندى .. أين هى ؟

الملكة : ... وا أسفاه ..

بدر : (منزعجا) ماذا حل بها ؟

جون : ألم تصلكم أخبارها ؟ !

بدر : (يعزقه القلق) هل أصابها مكروه ! ؟

الملكة : (فى حزن شديد) تعجّلت العودة إليكم ...

بدر : أفصحى .. أين هى ؟.. هل هربت ؟

جون : أرادت أن تهرب . . لتنقل إليكم أسرار تحصين دمياط ، بعد أن سمعتها خلال ثرثرة بحارتنا .. (لبدر) هل أنت من أهلها ؟

صبيح : كان ينتظر انتهاء الحرب ، لتزف إليه . . .

الملكة : أيها المصرى . . . لقد زُفّت عروسك إلى الجنة . . !

بدر : (صارخا فى صوت متفجع) ماتت ؟ .. قطر الندى ماتت ؟! غير صحيح . . . لن أُصدق ما تقولون !

جمال : (يسأل فى حزن) متى حدث هذا ؟

الملكة : أثناء عودتنا من منية عبد الله إلى دمياط . . . كانت مثالا للنبل والكمال . . لم تنس بلدها ولا خطيبها أبداً . . .

بدر : (متفجعا) ماذا فعلتم بها ؟

جون : اقتربنا مرة من الشاطىء ، فغافلتنا وقفزت إلى الماء . لم يُجدِ مافرضناه عليها من حراسة ، إثر تنبهنا إلى ماعَمِلت ..

بدر : (صارخا فى وحشية) وتركتموها تغرق ؟ !

جون : وعدت جلالتها من يعيدها من البحارة بمائة قطعة ذهبية . . لكن . . . (يسكت)

بدر : لـكن ماذا ؟ .. تـكلم ..

الملـكة : (فى أسى) سهم رماها به بحار متعجل . . .

بدر : (صارخا) قتلتموها .. قتلتموها ياقساة .. حطمتم أجمل ما فى حياتى ..(متفجعا) ماتت قطر الندى . ذهبت قطرالندى .. أصابع عدوانـكم الغاشمة ، لم تحسن إلا تحطيم كل جميل ..

صبيح : (فى أسى) تجلد يا بدر الدين ... لئن ذهبت قطر الندى فداء بلدنا ، فقد بقيت مصر ـ التى كافحنا جميعاً من أجلها ـ أكثر قوة وحياة ... تشجع ... لقد عرفناك بطلا فى كل محنة .

الملـكة : (متنهدة) وكانت خطيبته بطلة أيضاً .. أحطتها بكل رعاية . . ومع ذلك لم يكن يشغلها إلا تمجيد بطولتـكم ، وترقب الفرص للعودة إليـكم . . .

جمال : (لبدر) ليـكن فى هذا عزاء لك يا بدر الدين . . . لم تنس خطيبتك وطنها أبداً .. لقد ذهبت شهيدة ..

بدر : شهيدة المعركة التى ربحناها ! ..

بيبرس : لم يعد لك ما تحرص عليه فى دمياط يا بدر الدين . . . لنقتلهم فنتخلص منهم . لقد أقبل المساء ودمياط لم تُسلَّم إلينا بعد . . .

بدر : (فى حزن وأسى ـ وقوة) لقد حطموا قلبى . . لـكن التاريخ ملىء بأخبار من ينتصرون ... ونندر فيه أخبار من يكونون كرماء عند النصر . . .

بيبرس : تقول هذا وخبر موت خطيبتك لم تغب أصداؤه بعد !؟

بدر : هناك أسرى آخرون فى دمياط . . .

بيبرس : نضحى بهم ونقتل الملك ... لاشفقة فى السياسة أوالحرب !

بدر : صلاح الدين أطلق سراح ريتشارد ملك الإنجليز ..و نحن نمجد فى ذلك القائد خلقه وإنسانيته ، مثلما نمجد بطولته وسياسته !

بيبرس : (فى تحد) لم يصلح كرم صلاح الدين شيئا من أمرهم . . . لقد اشتركت فرقة إنجليزية كبيرة فى هذه الحملة ، وقتلتم قائدها فى المنصورة . . هؤلاء الفرنج حنثوا بكل اتفاق عقدوه معنا ...

أصوات : (تتعالى أصوات هتاف فى الخارج)

جمال : إذا لم نتسلم دمياط .. قتلناهم جميعا !.. (وهو يصغى إلى الهتافات) أتسمعون .. جاءت للشعب أنباء جديدة ! ..

(يندفع رسول إلى الداخل)

جمال : (للرسول) ماذا حل بالناس ؟

الرسول : وصل الحمام الزاجل بهذه الرسائل إلى السلطان من دمياط (يمد يده بالرسائل)

بيبرس : (وجمال يفض الرسائل) هل تسلمنا دمياط ؟ !

الرسول : أحدثت عساكرنا ثغرة فى سورها ، فرضخ الفرنج لشروطنا.. دخلها جنودنا ظافرين ، ورفعوا بيارق السلطان على أسوارها

وفوق أبراجها .

هتافات : (من الخارج) دمياط .. إلى دمياط ..

بدر : لقد استعدنا كل شبر من أرض مصر .. !

الملك : (واقفاً لأول مرة) استدعوا إذن إخوتى ورجالى ..

صبيح : (ينادى خلال باب الحجرة الداخلية) يا رجال ملك الفرنسيس . .
تعالوا .. حان الوقت لتركبوا البغال إلى دمياط ! . .

(يخرج من الحجرة الداخلية أخوا الملك وجوانفيل وسارجين وفيليب والكاردينال وجمع آخر من النبلاء)

بيبرس : (فى حدة) لقد استعدنا دمياط ، وحصلنا على الفدية . . .
فى إمكاننا الآن أن نقتلهم جميعا !

بدر : إن الشعب . . لن يرضى عمن يحنث بِقَسَمِه !

صبيح : ولن نحرم الشعب من مشاهدة ملك الفرنسيس راكبا بغلة ،
على رأس موكب من الحمير ، يتجه إلى دمياط مع فرسانه ...

بيبرس : إذن لا بد من أن يبقى أحد إخوة الملك رهينة ، إلى أن نتسلم نصف
الفدية الباقى !

براتييه : (أخو الملك . يتقدم) ما دمتم تطلقون سراح أخى الملك . .
سأبقى أنا ..

الملك : (للمصريين) بهذا نكون قد نفذنا شروطكم كلها ياسادة..
هل بقى شىء آخر ؟

جمال : بقى أن نذكركم بالمحافظة على عهدكم . . . فمصر لن تغفر !

بدر : ولن تنسى . لقد سحقتم قلبى ، وقلوب كثير من المصريين..

(يصمت لحظة، ثم يكمل) لكن التاريخ لن يذكر . . إلا أن مصر ، سحقت قلب فرنسا وإنجلترا ! ...

بيبرس : وسنسحقه فى كل مرة تعتديان فيها علينا . . وستظل مصر دائما ، مقبرة للغزاة !

الملك : (يائساً، لرجاله) لنصمت . . فللمنتصر الكلمة الأخيرة دائما

بدر : عد إذن إلى شعبك ، وقل له انك أقبلت على رأس مائة وعشرين ألف مقاتل كلهم كبرياء ، فلم تعد إلا بين بضع مئات من الفرسان ، تركبون البغال بدل الخيول ، وتحملون القيود بدل الدروع والرماح ... وان شعبا أعزل مسالما ، لم يحمل معظمه سلاحا قبل أن تدنس أقدامكم أرضه ، هو الذى سحق خيرة رجالك ، ومنحك الحياة أنت وهؤلاء التابعين القلائل . . . عودوا من حيث جئتم . . وليكن رحيلكم بلا عودة .. فالشعب العربى .. لن يُهزم أبدا !. .

(ينظر الملك فى شرود إلى بدر الدين ، وكأن نظرته امتدت لتسترجع هزائم السنة الماضية . يخفض بصره ، وفى بطء يتجه نحو باب الطريق صامتا ، يتبعه بقية الفرنج واحدا وراء الآخر ، عدا بواتييه، مطأطئى الرءوس كأنهم فى جنازة، يثقلهم الحزن والكآبة ومرارة الإحساس بالخيبة والهزيمة ؛ بينما وقف بدر الدين ومن معه رافعى الرءوس ، كأنهم يستعرضون طابوراً من الأسرى . يرتفع لحن انتصار هادىء وبطيئاً ، ولا يلبث أن يشتد ..)

يتزل ستار الختام

هذا الكتاب

هذه المسرحية ، ليست حوادث التاريخ وحسب ، بل هى قصة شعب قاوم جيشا ضخما مقاومة بطولية ، وانتصر عليه انتصاراً ساحقا ؛ هذا الشعب لم يفرد التاريخ لأفراده إلا سطوراً قليلة . . .

وقد وفق المؤلف فى ابتكار شخصية بدر الدين ، التى جعلها رمزاً للكفاح الشعبي ، كما أبرز سقوط دمياط ، ومعركة المنصورة وأسر الملك لويس فى مواقف نابضة بالحركة والحياة .

وحوار المسرحية ممتاز فى تعبيره عن الانفعالات وطبيعة الشخصيات ، وفيه كل مقومات الحوار المسرحى الناجح . . .

. . . إنها مسرحية ممتازة .

من تعليق للدكتور عبد القادر ...

عضو لجنة جوائز المسابقة

كتاب لا بد أن يقرأ

مطبعة المعرفة

الثمن ٢٥ ص